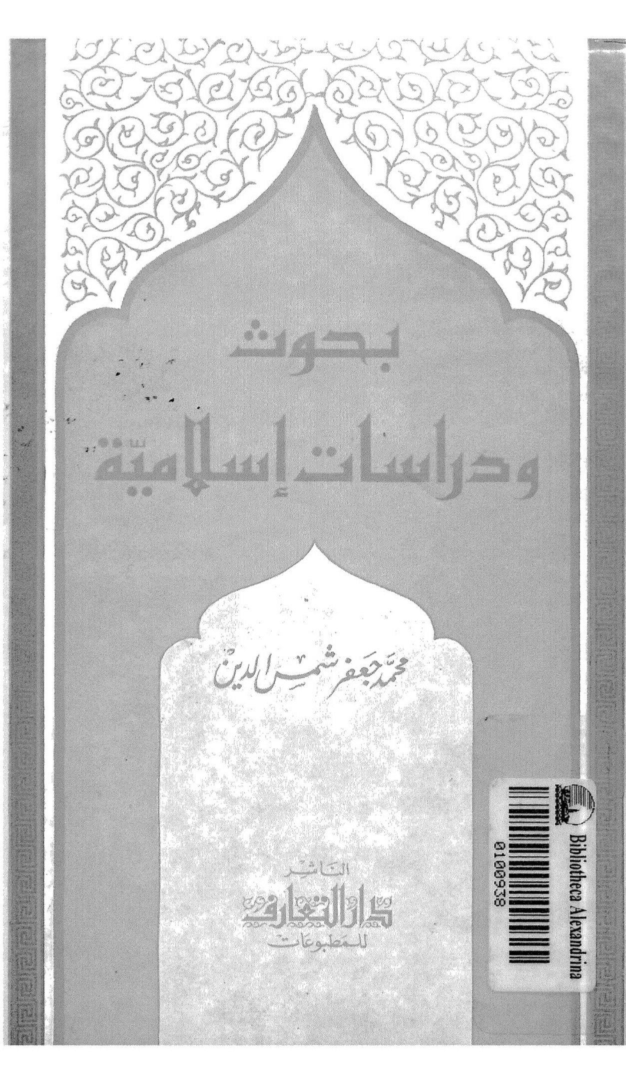


بحوث
ودراسات إسلامية
محمد جعفر شمس الدين
الناشر
دار المعارف للمطبوعات

دراسات وبحوث إسلامية

محمد جعفر شمس الدين

دراسات وبحوث إسلامية

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



المكتب: شارع سوريا - بناية درويش - الطابق الثالث
الادارة والمعرض - حارة حريك - المنشية - شارع دكاش - بناية ابو علي طعام
ص - ب ١١-٨٦٠١
تلفون ٨٣٦٦٩٦ - ٨٣٧٨٦٨
تلكس تعارف ٢٣٦٤٤ - LE

بين يدي الكتاب

هـذه « دراسات وبحوث إسـلاميـة » الغـرض منهـا ، عـرض مـوقف الاسلام كفكر وممارسة ، من مواضيع تضمنها هذا الكتاب .

البحث الأول حـول الاستعمـار الثقـافي وآثـاره في العـالم الاسـلامي . وقـد عرضت فيـه لمنطلقـات هذا الاستعمـار ، وبيّنتُ كيف انه اتُّبِعَ لتحقيق هـدفـه التخـريبي للشخصيـة الإسـلاميـة ، مرحلتي الهـدم والبنـاء بشكـل فـاضح ، مـع وضْع النقـاط على الحـروف ، فيـما يتعلق بـالآثـار التـدميـريـة الهائلة ، التي أفرزتها عملية الغزو الثقافي الكـافر لـلأمة الإسـلامية عـلى جميع الصُّعُـد . ثـم ختمت هذه الـدراسة بـاقتراحـات عمليـة للنهـوض والصَّحَـوة تحت عنوان « كيف السبيل » .

واما الدراسة الثانية ، فكانت بعنوان :

« مـوقف الاسلام من التـلاعب بمقدرات الأمـة » وقد عـرضت فيـه ، نـظرة الاسلام الى المجتمـع كوحـدة متـرابـطة ، وعملَه الـدؤوبَ من خـلال تشـريعـاتـه العـظيمـة عـلى تعميق جـذور هـذه الـوحـدة ، ومن جملة هـــذه التشـريعات ، مـا يتعلق بمقدرات الأمـة في عالم الأسـواق والأمـوال ، وكيف جهـد هذا الـدين الحنيف ، على مكـافحـة ظـاهـرة الإثـراء غـير المشـروع ، ليحـافظ على التـوازن الاجتماعي ، الـذي بدونـه لن تتحقق بحال ، وحـدة

المجتمع ، فضلاً عن ترابط أجزائه . وذلك بإغلاقه كل المنافذ التي تؤدي الى وجود مثل هذه الظاهرة .

وقد حاولت اثناء هذه الدراسة ، ان أبيّن كيف ان الإسلام الحنيف ، لا يكتفي بالتشريع فقط كحلّ ، بل نراه يقرن هذا التشريع باستمرار ، بتنفيذه على الأرض مِن قِبَل ولي الأمر بشكل عملي ، وأشرت هنا ، الى إقرار الإسلام لمبدأ تَدَخُّل الدولة في أي موقع أو موقف ، يرى الحاكم العادل في تَدَخُّلها مصلحة للدفاع عن المستضعفين في الأرض .

واما البحث الثالث فقد وضعته حول فريضة الحج في الاسلام ، وكان بعنوان « مسيرة الحج على خطى ابراهيم » وقد عرضت فيه لفصول هذه المسيرة منذ عهد أبي الأنبياء إبراهيم (ع) ، والى خاتمهم محمد (ص) . وبيّنتُ كيف ان فريضة الحج ، استبطنت عملية جرٍّ للماضي المجيد ، وكل ذكريات الرسالة السماوية الخالدة ، في مسيرتها المباركة . ذكريات « تربط قديم المؤمنين بجديدهم ، ذكريات ، هي اعلان بأن دين الله في الآخرين ، هو دينه في الأوّلين ، يجدِّدُ اللاّحق من عباده سُنَّةَ السابق منهم » . كما وضَّحتُ الفلسفة الكامنة وراء نُسُكِ الحج وشعائره . وارتباطها بالعملية التربوية الكبرى للإنسان المؤمن . الذي اراد الله سبحانه لهذه الفريضة العبادية ان تحققها له في هذه الحياة .

وبعد . . .

فأسأله سبحانه ، ان ينفع به ، وان يتقبَّله بفضله ورحمته وكَرَمه ، إنه وليّ حميد . . .

محمد جعفر شمس الدين | **بيروت ٣٠ صفر ١٤٠٦ هـ**

١٣ / ١١ / ١٩٨٥ م

الاستعمارُ الثقافيُّ
وآثارُه
في العَالَمِ الإسْلامي



﴿ وإذا رأيتهم تُعْجِبُكَ أجسامهم وإن يقولوا تسمعْ لِقولِهم كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَة يَحْسَبون كلَّ صيحةٍ عليهم * هُمُ العدو ، فاحذَرْهم ، قاتلهم الله أنَّى يؤْفكونَ ﴾

المنافقون / ٤

قد يتصوّر البعض ، أن الدخول في بحث مشكلة الاستعمار الثقافي ، في هذا العصر ، لم يَعُد بذي موضوع ، نظراً لانحسار ظاهرة الاستعمار عن عالمنا الاسلامي ، وإدباره الى غير رَجعة .

ولكن مثل هذا التصور في الحقيقة ، من وجهة نظري ، بعيد عن الواقع ، يطفو على السطح ، ولا يغوص في الأعماق .

صحيح ان الاستعمار الكافر ، في اكثر البلدان الإسلامية ، قد ولى في صورة الاحتلال العسكري .

ولكن الصحيح أيضاً ، انه لم يخرج منها عسكرياً ، إلا بعد ان رتّب الأمور ، واتخذ الخطوات ، بشكل يضمن بقاءه في صوَرٍ اخرى ،تضمن له إحكامَ سيطرته عليها ، شعباً وأرضاً وثروات .

واستمراره بلَبوسٍ آخر ، وثوب جديد ، هو أشد خطورة ، وأعمق أثراً . . .

باعتبار ان الاستعماري العسكري ، امرٌ حسّيٌ منظور . في حين ، ان الاستعمار الجديد البديل ، في كثير من وجوهه الدميمة ، خفي مستور .

وحيث إن من العسير الى حدّ ما ، في مثل هـذا البحث ، ان أعرض لهذا الاستعمار من وجوهه كـافة ، فسوف احصر حـديثي هنا ، عن وجـه واحد فقط ، هو في اعتقـادي ، الآلة الـرئيسة ، التي من خـلالها ، استـطاع هـذا الوحش ، ان ينسَـخَ بقية وجـوهه المشـوَّهة ، ليمسَـخَ بعـد تـزويقهـا ، وتزيينها ، بما ابتكر من مساحيقَ ، وجوه الغالبية من أبنـاء الأمة الإسـلامية ، في مشارق الأرض ، ومغاربها .

ذلك هو الاستعمار الثقافي .

ولقـد أدرك هذا الاستعمـار ، بجناحيـه الصليبي والإلحادي ، الغـربي والشـرقي ، سرَّ هـذه الصلة الحميمة ، وذلـك الترابط الـوثيق ، بـين الفكـر والثقـافة من جهـة ، وبـين الأمـة ، من حيث الكيـان والـوجـود ، من جهـة اخرى .

نعم ، لقــد أدرك هـذا الاستعمــار ، منذ وطـئت أقـدام جحــافله الغازية ، الأرض الإسـلامية في آسيـا وأفريقيـا ، قوةَ تلك العلاقة في سَداها ولحمتها ، بين ثقـافة الإسـلام وفكره ، وبـين الشخصية الإسـلامية الفـذَّة ، التي استطاع هذا الفكر ان يخلقها على امتداد التاريخ .

وبـالتالي ، أدرك أن أخـطر ما يهـدد سيطرتـه عـلى المسلمـين ، هـو أن تبقى تلك الرابطة ، مـع ما تستلزمـه من تمثُّلِهم المستمر لتـراثهم الحضاري ، وإرثهم الفكـري والثقافي ، مـع ما يستبـطنانـه من انشداد دائم ، الى خـالق الإنسان والكون والحياة .

ومن هنـا ، نجده قـد فكّر وقـدَّر ، وقـرَّر العمـل في اتجـاه فصم تلك العروة ، وفك ذلك الارتباط .

ولكن ، كيف السبيل الى ذلك كله ؟

لقد استطاع الاستعمار ، ان يقضي من خلال جيـوشه ، عـلى أية قـوة مادية ، يمكن ان تقف في وجه زحفه وغزوه .

ولكنه ذهب في الرؤ ية الى أبعدَ من ذلك .

أراد ابتكـار وسيلة او وسائـل ، يستطيـع بهـا القضـاء عـلى شيء غـير منظور ، ولا تستطيـع الجيوش مهـما عظُمَتْ إزاءه شيئـاً ، [illegible] ، عالم القِيَم ، مع كل ما يمتُّ اليه بصلة ، من تراث وفكر وتـاريخ ، تؤطـر امة الإسـلام ، وتصوغ شخصيتها .

وقـد تأكـد الاستعمـار ، أن القضـاء عـلى عـالم القيم عنـدنـا ، بكـل امتداداته وجوانبه ، يحتـاج الى سلاح هـو من سنخ هـذه القيم ، لا من سنخ الحس والمادة ، فشرَعَ بعمليـة غَزْوٍ جـديد ، ولكن ، لنفـوس المسلمين هـذه المـرة ، وعقولهم ، وأخـلاقهم ، وأنماط عيشهم وسلوكهم ، من خـلال تحرّكٍ تخـريبي مُبَرمـج ومدروس ، يـأخذ بعـين الاعتبار ، كـل الظروف النفسيـة ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، التي كـان يعيشها العـالم الاسلامي آنذاك .

وتـوسَّل الى إنجـاح عملية غـزوه الجديـد ، بكـل مـا في جعبتـه ، من اسباب الإعلام ، وأسباب دعايته المضلِّلة .

ولقد اتخذ هـذا التحرك الاستعمـاري التخريبي في العـالم الإسلامي ، صفة المرحلية التراتبيَّة ، وصولاً الى الهدف المنشود .

وكانت المرحلة الأولى التي بدأ بها :

مرحلة الهَدْم !؟

ونعني بالهدم ، عملية هدم المفـاهيم والقيم الفكريـة الإسلاميـة ، على صعيـدي العقيـدة والنـظام . والتي كـان لهـا الـدور الأكبـر ، في اكتسـاح المسلمين في عصورهـم الأولى ، لأغنى وأعتى حضـارتين معـروفتين ، حضـارة الفُرس ، وحضارة الروم .

والذي أغرىٰ طـلائع هـذا الاستعمار ، في اختيـار منحى الهدم لأسس

العقيدة والنظام في العالم الإسلامي ، هو خروجه لِلتو ، من تجربة ناجحة في بلاده هو ، حيث استعمل أدباءُ ، وفلاسفةُ ، ومفكرو ما يسمى بعصر النهضة ، نفس الأسلوب ، للقضاء على سلطان آنذاك ، عندهم ، من خلال فتح النار على كل مفاهيمها ، وأفكارها ، ومعتقداتها ، مما يتعلّق بالماورائيات ، مع ما رافق ذلك ، من تحطيم للمبادىء والمسلّمات الأخلاقية في المجتمع الأوروبي المسيحي ، حيث استطاع قادة عصر النهضة في وقت قصير نسبياً ، ان يزلزلوا كل شيء في أوروبا ، تحت أقدام رجال الأكليروس ، وأمراء الكنيسة البابوية ، من دون الأخذ بعين الاعتبار ، عندما فكّروا بلعب نفس الدور في بلاد المسلمين ، البَوْنَ الشاسع ، بين الشريحة البشرية ، التي نجح هذا الأسلوب معها في أوروبا المسيحية ، وبين الشريحة البشرية ، التي يراد للتجربة ان تنجح فيها أيضاً في الشرق الإسلامي .

ومن دون الأخذ بعين الاعتبار كذلك ، الفوارق الضخمة ، بين المسيحية كدين ، هو في مجمله ، عبارة عن مجموعة طقوس ، تقوقع الإنسان ، وتمسَخُه ، وتحوِّله الى مخلوق ضعيف يائس ، يُطلب منه أن يقهر ذاته ، ويمزِّقَ وجوده ، ليعود كمّاً مهملاً محطماً .

وبين الإسلام ، الذي هو كلٌّ متكاملٌ في عقيدته ونظامه ، يكرِّم هذا الإنسان ، ويعظّمُه ، ويُربّيه ، آخذاً في تربيته تلك ، ازدواجيته من روح وجسد ، لكل منهما معاييره وحدوده ، في وحدةٍ متناغمةٍ منسجمة ، تدفعه للخلق والإبداع ، وتأكيد الذات .

في نفس الوقت ، الذي تجعل له فيه الضوابط التي تحفظه من ان يتجاوز الخطوط الحمر التي لا يجوز له ان يتعدّاها في مسيرته الإنسانية على هذه الأرض ، حرصاً على سعادته ، ونظافة حياته ، واستمرارية تساميه ، وتحليقه نحو الكمال .

بــل لعـل فهم الاستعمــار لهـذا الفـرق الجـوهـري بـين المسيحيـة والإســلام ، جعله يصرّ ، وبشكـل آكـد ، عـلى تحـطيم الأسس التي يقــوم عليهـا الدين الحنيف ، لاجتثـاث الانسان المسلم من الجـذور ، وعزلـه نهائياً عن منابع القدرة على الحركة ، والنمو لديه .

ولم يكن في فهمي ، من هـدف آخـر لهـذا الاستعمـار ـ في بـدايـاتـه ـ بالنسبة لغزو العالم الاسلامي ، غير هذا الهدف .

ولقد ساعد الاستعمار ، عـلى تحقيق هدفـه ، إضافـةً الى فكر « عصـر الـرِدَّة » الأوروبي الـذي كـان يحمله ، التبشـير المسيحي ، والاستشـراق الحاقد ، ومِن بعدُ ، الشيوعية الملحِدَة .

ولقـد كان التشـويه ، والتشكيـك والتضليـل ، السمـات الـرئيسـة في عمليـة الهدم هـذه ، حيث لم توفَّـر أية زاويـة من زوايـا الفكـر الإسـلامي ، العقيدي والتشريعي ، سواء فيما يتعلق بمفهوم الربـوبية والتـوحيد والعـدل ، أو النّبوة والنبي (ص) ، أو اليوم الآخر .

كـما لم يسلم القـرآن الكــريم ، دستـور الإســلام ، من الافتـراءات وحملات التشكيك والتحريف .

كما شوَّهت نظرة الاسلام الى المرأة بشكل خـاص ، والعلاقـة الزوجيـة بشكل عام ، من جرّاء التزييف لموقف الإسلام من مبـدأ قيمومـةِ الرجـل ، وطال التشويه مبدأ الاسلام في حرمـة الركـون الى الظالـمين ، وحثّه المسلمـين على عدم الخضوع لولاية غير المسلم .

وكــذلــك احكــام القـصــاص والحــدود ، وهــوجم نــظام الإرث الإسلامي ، واحكام الاسرة ، من نكاح وطلاق وما يستتبعها .

بـل قُـدِّم الإســلام ـ زوراً ـ عـلى انــه ديـانــة أرضيـة ، من صنــع الانسان ، تستمد جذورها من السَّامية .

وبمجرد مراجعة كتب المستشرقين ، توضح كل هذه الافتراءات على الإسلام ونبيه ودستوره ، وبخاصة كتابات « زويمر » و « جولد تسيهر » ، و « بروكلمان » و «لامنس» و «لويس برتران» و «لنسنك» من النصارى و «برنارد لويس» و «رودنسون» و «جاك بيرك» و «م . برجر» من اليهود .

ولا غَرْو ، فالاستشراق ـ كما عُرِّف ـ هو العلم في خدمة السياسة والاستعمار .

وإضافة الى الثلاثي الماكر الذي ساعد الاستعمار الكافر على تنفيذ مخططه ضد الإسلام والمسلمين ، عَنَيْتُ الاستشراق ، والتبشير ، والشيوعية ، فقد انضم الى هذا الأخطبوط الثلاثي ، طابور خامس ، استطاع الاستعمار ان يجنّده من سكان البلاد الإسلامية المستعمَرة ، ممن أغراهم بالمال والجاه ، مركِّزا عليهم الأضواء ، ليبرزَهم كشخصيات مهمة في المجتمع ، فراح هؤلاء يروّجون لأفكاره ، وينفذون مخططاته ، في عملية الهدم التي مارسها .

وبعض من هؤلاء ، صنعهم الاستعمار الكافر في جامعات الغرب ومؤسساته التعليمية ، وُفق مقاييسه الفكرية والمسلكية ، على أيدي مستشرقين بعضهم من اليهود .

ونذكر من هؤلاء ، كمصاديق لهذا الطابور : زكي مبارك ، مصطفى عبد الرازق ، محمود عزمي ، مصطفى فهمي .

وقد تتلمذ هذا الأخير على يد مستشرق يهودي ، هو « ليفي برايل » ، حيث حرَّضه هذا المستشرق الحاقد ، على ان يبحث مسألة تعدد زوجات الرسول (ص) بأسلوب استشراقي . !!؟

وان من اخطر ما طرحه الاستعمار الكافر في العالم الاسلامي ، تكملة لعملية الهدم ، عدةَ بِدَعٍ ، تصب كلها في اتجاهين : تفتيت الاسلام الى دوائر صغيرة . غير مترابطة ، بل متناقضة في كثير من جوانبه . وتفتيت

المسلمين ، وتمزيقهم اشلاء مبعثرة في كم مهمل هنا وهناك .

ولقد كان أوضح مصداق للاتجاه الأول ، طَرْحَ الاستعمار للفكرة الغربية عن الدين ، فكرة العلمانية او الانشطارية ، كما يحلو لبعض مفكرينا ان يُسمّيَها .

والعلمانية ، بالمفهوم الأوروبي ، فصل الدين عن الدولة ، وترجمة ذلك على صعيد العالم الإسلامي ، إبعادُ الإسلام عن مجالات الحياة كافة للمسلمين .

وذلك يعني ، بعد التدقيق فيه ، انفصاماً بين الدين والدنيا ، يستتبع صراعاً بين الدين والعلم ، ويتولد عن هذا الصراع تلقائياً ، طغيان العلم ، حيث يصبح الأمر كله عائداً الى التجريب ، وعالم الحس ، مع انحسار كبير ، إن لم نقل انعدام ، لدائرة الغيب والروح ، وما يتصل بهما من مفاهيم .

ثم توسعت دائرة العلمانية ، لتشمل الفصل بين الماضي والحاضر ، بل إنكار الماضي كله ، مع ما يستتبعه من اجتثاث المسلم من جذوره الحضارية كلها .

ثم ازدادت العلمانية توسعاً في الطرح ، لتشمل الانفصام بين السياسة والأخلاق ، وبين العقيدة والسلوك . وهكذا ، لم يعُد الاسلام الكل المترابط المتكامل ، في نظرة شمولية مستوعبة واضحة .

وتغدو نظرة المسلم الى اسلامه ، نظرة ضبابية غائمة ، لا تبين معالم الصورة فيها ، وكأنها شبح مبهم ، مجهول .

واما الاتجاه الثاني ، الذي رمى الاستعمار من خلاله ، الى تفتيت المسلمين ، وتمزيق أقطارهم ، وحشرها ضمن حواجز ومُعوّقات ، فأبرز مصاديقه ، احياء فكرة القوميات بمعناها العِرقي العنصري ، مع ما يستتبعه ذلك ، من بعث جذورها الوثنية ، ولغاتها الأصلية ، طعناً لإنسانية

الاسلام ، وهدراً لجهود رسوله (ص).

فضرب لدى كل شعب من الشعوب الإسلامية ، على وتر العرق الجاهلي فيه ، فهنا قومية عربية ، وهناك قومية فارسية ، وهنالك قومية تركية ، او كردية ، أو بربرية ، الى آخر المعزوفة .

كما احيا فكرة الفرعونية في مصر ، والفينيقية في لبنان ، والكنعانية في سوريا وفلسطين ، والبابلية والآشورية في بلاد ما بين النهرين ، والبربرية في المغرب ، والوثنية السوداء في أفريقيا .

وبعثوا اللغات القديمة ، واللهجات المحلية لكل شعب من الشعوب بحسبه .

كما قادوا حملة مخططة مدروسة ، ركّزت على اللهجات المحلية في كل قطر ، وهي ما يطلق لفظة العامية عليه . كل ذلك في اعتقادي ، لتدمير لغة القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، بقصد تدمير صلة الوصل الكبرى بين المسلمين في المشارق والمغارب .

ومن جملة مصاديق هذا الاتجاه التفتيتي أيضاً ، تحطيم العنصر الأخلاقي في نفوس المسلمين .

وقد يستغرب البعض ، عندما يسمع مثل هذا الكلام ، إذ يتساءل : ما هو الربط بين وحدة المسلمين وتلاقيهم وبين المسألة الأخلاقية .؟!

الحقيقة ، ان الفكر الثقافي والحضاري لأية بيئة اجتماعية متجانسة ، من المفروض ان تنبثق عنه شبكة من العلائق الانسانية التي تؤطر بمجملها شخصية الانسان المنضوي تحت مظلة تلك البيئة ، ومعنى هذا ، ان ذلك الفكر ، ليس مجرد معلومات يحشى بها رأس الإنسان بواسطة مدرسة او كتاب او ما شاكل ، بل هو عبارة عن بنية قائمة برأسها ، تنسجها العادات والتقاليد والأعراف والأذواق ، وأنماط السلوك ، التي تُعتبر بدورها ، وليدة التاريخ ، والتراث الحضاري لتلك البيئة ، وهذا يعني ، ان البنية

الاجتماعية إنما ينشىء علاقاتها وصِلاتها الحضارية والإنسانية الفكر الواحد الذي يحكمها .

وما لا يجوز ان نغفل عنه بحال ، هي ان تلك الصلات والروابط ، لا يمكن ان توجد ، ما لم يتوافر لدى عناصر تلك البنية الاجتماعية ، الالتزام بالمبدأ الأخلاقي .

ذلك ، أن المبدأ الأخلاقي هو الأداة الحساسة التي تضبط بدقة ، المقادير المعنوية التي ينبغي ان تدخل في بناء الشخصية الإنسانية .

ومن هنا ، نرى ، ان العلاقات الاجتماعية ، والصلات الحضارية ، تختل في اي مجتمع يهتزّ فيه هذا المبدأ ، أي المبدأ الأخلاقي .

ولإدراك الاستعمار الكافر ، حقيقة هذا الإرتباط العميق ، بين الفكر الثقافي الحضاري في الاسلام ، وبين السلوك الإنساني للمسلم ، ولكي يقطع خيط الارتباط هذا ، حرّك الضابط الذي يتحكّم فيه ، وهو عنصر الأخلاق في نفس المسلم فاختل الضابط ، واهتز ثم انقطع .

ولا أريد ان أدخل في سرد الأساليب ، التي اتبعها الاستعمار في تحطيمه للحاجز الأخلاقي في نفوس المسلمين ، فكلنا يعلم ذلك ، وإن كان من الضروري هنا ؛ ان نشير مجرد إشارة ، الى عناية الاستشراق الفائقة ، بإحياء التراث الأدبي الفاحش لشعراء المجون في الأدب العربي الجاهلي ، ومنها الخمريات والغزليات ، وكذلك في العصر العباسي وما تلاه ، ولعل تركيزه على أبي نؤاس ، وبشّار ، وابن الرومي ، وحمّاد ، من شعراء المجون ، وكتاب الف ليلة وليلة ، وكذلك كتاب الأغاني ، في الأدب الإباحي المستهترِ ،مُؤَشّر واضح على ما قلناه .

وعندما وصل الاستعمار الكافر ، بجميع رؤوسه من تبشير ، واستشراق ، وإلحاد ، الى هذه النقطة من عملية الهدم ، وبهدف تدمير البقية الباقية في نفوس المسلمين ، من القدرة على التصدي والصمود أمام

زحفـه الحاقـد ، مما قـد يعوق عمله ، ويعـوّق تقدمـه ، التفَّ هـذا الـوحش المفتـرس ، على فكـرة الجهاد الاسـلامي ، لهدمهـا ، وما يصب في مجـراها ، من حـرمة الـركـون الى الـظالمـين ، وعـدم قبـول المسلم بـولايـة غـير المسلم عليه . ومبدأ حرمة تزوج المسلمة بغير المسلم وكذا العكس ، . . .

فمبدأ حرمة زواج المسلمة بغـير المسلم ، في منطق المستشـرقين « فكـرة عنصـرية ، قـائمة عـلى تمييز الشعـوب بعضهـا عن بعض . بـدافـع العصبيـة الكريهة ، او بدافع الغرور » .

ومبـدأ حرمـة ركون المسلم الى الـظالم او الى غير المسلم ـ هـذا المبـدأ ـ في نـظر المستشـرقـين ، هـو عبـارة عن انعـدام الـروح التعـاونيـة ، واختيـار الانزواء والتقوقع داخل الذات القَبَلِيَّة الـطوطمية ، مـع ما يستتبعـه ذلك من حرمان لمنجزات العلم ، « وتقدمية حَمَلَتِه الأوروبيين » !؟!

وحكم الجهاد في الاسلام ، من وجهة نظر الاستشـراق الكافـر ، يعني « فكـرة الاعتداء نفسهـا ، أعطاهـا الاسلام صيغـة شـرعيـة ، ودينيـة ، كي يـدفع بهـا المسلم لمهاجمـة غـير المسلم ، في وقت أمِنَ فيـه هـذا عـلى نفسـه ، وعِـرضِه ، ومـالِه ، ولـذا فهي ـ عند هؤلاء الحـاقـدين ـ فكـرة الغـدر ، او تشجيع العدوان . . . » !؟!

والدليل القاطع ، عـلى أن الاستعمار الكـافر ، هـو الذي أوحى بهـذه الأكـاذيب والافتراءات عـلى الاسلام ، هـو ما اعتـرف به احـد عملائهم من المـرتدّين ، مؤسس مـذهب القاديـانية ، غـلام احمـد القـاديـاني في الصفحـة الخـامسة عشـرة من كتابـه : « تريـاق القلوب » ، حيث يقول بكـل صراحـة ووقاحة :

« لقد قضيتُ كل عمري في تأييد الحكومة الإنجليزيـة ونصرتهـا ، وقد ألَّفتُ في منـع الجهـاد ووجـوب طـاعـة أولي الأمـر الإنجليـز من الكتب والنشرات ، ما لو جُمع بعضـه الى بعض ، لَمَلأ خمسـين خزانـة . وقد نشـرت

جميع هذه الكتب ، في البلاد العربية ، ومصر ، والشام ، وكابل . . . »

وفي نفس الإطار ، وعلى نفس الوتيرة ، ومن ذات المنظور ، أفهم تعاظم ظاهرة التصوّف ، بمعناها المنحرف المبتدَع ، وان ذلك لم يكن إلا بتشجيع ودفعٍ من قِبَل الاستعمار الكافر وأدواته ، خدمةً لهدفه ، في القضاء على أية طاقة قتالية لدى المسلمين ، أو قدرة على النهوض والتصدي ، إن على الصعيد الفكري ، باعتبار ان منحىٰ التصوف بصورته المبتدَعة ، يقتلع الإنسان من واقعه الاجتماعي الأرضي ، ويحوّله الى مجذوب يتطلّع دائماً نحو السماء ، حتى يغلبه الدوار ، ويصرعه الغشيان والهذيان .

او الصعيد العملي ، حيث يعمل التصوّف على إماتة كل تعلّق بالحياة وشؤونها ، وسحقٍ للجسد بما يمثّل من دوافع وطاقات محرّكة .

ولعل مَن زار منا كل مناطق افريقيا ، بما فيها مصر ، وكذا بعض مناطق آسيا ، رأى بأم عينيه ، كيف تفتك الطرق الصوفية فتك السمْ الزعاف في الجسد ، بمسلمي هذه المناطق بشكل عام ، حيث يحوّلهم الى قطعان من الكسالى المتعبين ، والمرهقين ، فيعطون ذريعة كبرى للالحاد ، والتبشير والاستشراق ، ليصموا الاسلام من خلالهم . بأنه افيون الشعوب ، وسبب ضعف المسلمين وتخلّفهم . !!

وما أن انتهت عملية الهدم كمرحلة اولى ، حتى بدأت المرحلة الاستعمارية الثانية ، من مرحلتي التخريب ، عَنَيْتُ عملية البناء .

والمقصود بعملية البناء ، عملية بناء مفاهيم أعداء الإسلام وأفكارهم ، من خلال برامج مدروسة ، تأخذ بعين الاعتبار ، حالة الضعف والانحطاط ، خاصة بعد ان وضعت الحرب العالمية أوزارها ، واستقرت اقدام المستعمرين في كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي ، في آسيا وافريقيا .

وإضافة الى حالتي الضعف والانحطاط ، اللتين ارتكست فيهما الشعوب الاسلامية ، نتيجة الهزائم المكرورة ، وسياسة القهر والظلم والطغيان والإفقار ، التي انتهجها المستعمرون في البلاد المستعمَرَة ـ اضافة الى هاتين الحالتين ـ وُجِدت حالة فراغ كاملة ، أو شبه كاملة ، والتي كانت حصَاد جهود عملية الهدم الطويلة الأمد ، التي مارسها الاستعمار في المرحلة الأولى اتجاه الاسلام ومفاهيمه ، . .

حالة الفراغ هذه ، منظمةً الى حالتي الضعف والانحطاط ، جعلت لدى المسلم في الغالب ، حالة قابلية الاستعمار ، فيما يطرحه هذا الاخير ، ويلقيه على أي صعيد . !!!

ومن المعلوم ، ان الضعف والانحطاط والفراغ ، عندما تسيطر على مجتمع مّا ، فذلك يعني تفشّي الأمراض النفسية الخطيرة ، على مستوى توجّهات أفراد ذلك المجتمع ، ليس أقلّها الفرديةُ الأنانية ، وبالتالي ، ينعكس سوءاً على البنية الاجتماعية ككل ، وقد يكون من أبرز وجوهه الدميمة ، شيوع الانتهازية في السلوك والتصرّف .

ويبدو ذلك أمراً طبيعياً ، إذا التفتنا الى أن الأنانية والفردية كموقف نفسي خاص ، ليست شعور مُلحٌ بالذات ، يستتبع ضعف الشعور بالمسؤولية ، اتجاه القيم والذوات الأخرى ، أو ضمور هذا الشعور ، وما ذلك إلّا بسبب حالة الفصام والانفصال ، بين النشاط الإنساني وبين الرقيب الذي يحدد الإطار ، الذي يتحرك ضمنه هذا النشاط ، والمدى الذي لا يجوز ان يتعدّاه .

وهذا الرقيب هو العنصر الأخلاقي في نفس الإنسان ، الذي ينظّم النشاط الإنساني بشكل يتيسَّر معه التوازن الفردي والاجتماعي ، ويمنع من ان يصير الكيان الى التفسُّخ والانحلال ، وقد سبق وقلنا ، بأن الاستعمار عندما أدرك خطورة هذا العنصر الأخلاقي ، عمل على التلاعب به ، مما سبَّب اختلاله واهتزازه ثم انبتاره .

هذا ، إضافة الى ان الدين هو منبع القيم الاخلاقية جميعاً ، وعندما عزل الاستعمار الكافر الاسلام في مرحلة الهدم عن واقع حياة المسلمين ، وشوَّه صورته في نفوسهم ، وسرَّب الشك بمفاهيمه الى عقولهم ، وحينئذٍ ، فقد الرقيب الصلة بمنبع غذائه وغناه ، فكان ان ذهب في سبات عميق ، في حين انطلقت الغرائز الحيوانية من عقالها صاخبةً معربدة .

وفي ظل هذه الحالة البائسة على جميع الصُعُد ، بدأ الاستعمار الكافر ـ كما سبق واشرنا ـ طرح مفاهيمه الإلحادية والعلمانية .

فَطَرحَت العلمانية الأوروبية النظامَ الديمقراطي في مجال السياسة والحكم ، وفي المقابل طَرَحَ الإلحاد الأيديولوجي النظامَ الديكتاتوري البروليتاري .

وطرحت العلمانية الأوروبية النظام الرأسمالي الاحتكاري في مجال الاقتصاد .

وفي المقابل ، طرح الإلحاد الأيديولوجي النظام الاشتراكي او الشيوعي القائم على النظرة العلمية المادية .

وطرحت العلمانية الأوروبية مبدأ تكريس سيادة الفرد في عالم الاجتماع ، فألغَتْ وجود المجتمع . وكرَّست ما يسمى بمبدأ الحريات الأربع .

وفي المقابل ، طرح الإلحاد الأيديولوجي في نفس المجال ، سيادة المجتمع ، فألغى وجود الفرد . . !!!

ومن الأرحام النجسة لهذه الأنظمة الثلاثة الكافرة ، في السياسة ، والإجتماع ، والاقتصاد ، خرجت مخلوقات مشوّهة ، لوّثت بجراثيمها كل جوانب حياة المسلمين تقريباً .

ففي مجال القضاء ، الغيَ التشريع الاسلامي ، واستبدل بمواد قانونيةٍ وضعيةٍ .

وفي المجال المالي، وضع النظام الضريبي ، وأصبحت حركة المال في المجتمع الاسلامي ـ تبعاً للنظام المالي العالمي ـ خاضعة للقواعد الربوية ، ولنظام إلغاء الملكية الفردية او تحديدها ، فاستبعِدَت نتيجة لذلك التشريعات المالية في الإسلام ، ونسِفَ حكم تحريم الربا الاسلامي في المعاملات والقروض ، وقام الاقتصاد على مبدأ شرعية الاحتكار ، فنُسِفَ الحكم الاسلامي بتحريمه ، وخضعت الأسرة في كل من النظامين ، الى نظرته في الجانب الاجتماعي ، فتفككت عراها في الطرح العلماني الأوروبي ، نتيجة تحكيم مبدأ الحرية الشخصية . وفي الطرح الإلحادي الأيديولوجي ، نتيجة عدم الاعتراف بالأسرة إلا بمقدار ما يقوم عليها المجتمع ، من زاوية كونها مصنعاً لإرفاده بالنوع المحسَّن من الثيران .

ووُفقَ المبدأين ، مع اختلاف المنظار ، أصبحت المرأة سلعة مشاعة ، يحق لها ان تعاشر اي رجل ، كما يحق لأي رجل ، ان يتخذ عدة نساء ، كأوعية لصديده ، يفرغ فيهن شحناته الغريزية الحيوانية .

وكان من نتيجة ذلك ، نسفُ احكام الإسلام فيما يتعلق بالأسرة ، فشلّ نظام الإرث الاسلامي ، واحكام الأولاد ، وسوّي الولد الشرعي بولد الزنا ، وأُبيحَتْ العلاقات الشاذة بين افراد الجنس الواحد ، كاللواط والسحاق . وضُرِب بعرض الحائط ، نظام التكافل الأسري في الشريعة المقدسة ، كنفقة العمودين الواجبة لأحدهما على الآخر .

وغَزَت العالمَ الإسلامي ، تحت غطاء العلم ، نظريات مادية في مبدأ الكينونة والمجتمع والسلوك ، تكرّس حيوانية الإنسان ، حيث تحصره في عالم الضرورات ، من الملبس والمسكن والجنس ، وتردّه الى سلالة خسيسة من القردة .

والغريب ، ان اكثر هذه النظريات ، التي غَزَت عالمنا ، رَشَحَتْ عن عقول الرباعي اليهودي : ماركس وفرويد ، وداروين ودوركهايم ، وانتشرت تلك النظريات المبرقعة بلباس المعرفة والعلم ، بين المسلمين ، نتيجة حالتي الفراغ الفكري والضعف والانحطاط ، اللتين سبق وأشرنا اليهما .

ولقد أراد الاستعمار الكافر ، ان يطمئن الى نجاح عملية البناء هذه ويجذّرها ، لتصبح القاعدة ، التي لا تقوم للاسلام بعدها قائمة ، فَي دياره وأقطاره ، فيعودَ غريباً كما بدأ . . .

فاستغل الأعداء الثلاثة للإنسانية ، الجهل ، والمرض ، والفقر ، ليستعين بها على ما يريد .

وراح ينشيء المستشفيات والمصحّات الجسدية والعقلية في مجاهل افريقيا ، وفي اقطارها ، واقطار آسيا ويجنّد جيوشاً لها من الرهبان والراهبات ، يتولّون شؤونها الطبية والإدارية ، حيث باتت تُوزَّع مع الأدوية مجاناً ، الأناجيل والصلبان والترانيم ، مستغلين في الاثناء ، ضعفَ الإنسان عادة في حالة مرضه ، وحاجته الأكيدة الى الحنان والعطف والرعاية ، فلا يبخلون عليه بكل ذلك ، حتى يؤثّرون عليه نفسياً ، ويستميلونه الى تبني عقائدهم ومفاهيمهم ، وأفكارهم ، بل وأنماط سلوكهم .

وقاموا بحملة كبرى لإنشاء المياتم ، يحتضنون بين جُدرانها اطفال المسلمين ، فيرضعونهم مع اللبن سموماً فكرية وعقائدية ومسلكية ، حتى إذا ما شبَّ هؤلاء ، كانوا يجهلون كل شيء عن تاريخهم ودينهم وتراثهم .

والأخطر من هذا كله ، هو ان الاستعمار الكافر راح ينشيء المدارس على اختلاف مراحلها ، في غالبية الأقطار الإسلامية ، وكذلك الجامعات ومعاهد التعليم ، ويزوّدها بالبرامج التي وضعها هو وُفق مفاهيمه

الكـافرة ، ونـظرته المـاديـة للحيـاة . وأبْعَـدَ عنهـا كـل مـا يمت الى الاسـلام بصلة ، اللهم إلا مـا يكون دسـاً وتضليلاً وتـزويـراً وتشـويهـاً لهـذا الـدين ، وتشكيكاً فيه . وحشد لهذه المراكز جيوشاً من اتبـاعه ، من الاختصـاصيين في كـل حقل ، وسلّم زمـام هذه المؤسسـات بيد إرسـاليات تبشيـريـة أجنبيـة ، وزُمـر من المستشرقـين الحاقـدين على الاسـلام ، عملت كلها ، وبـإمكانـات مـاديـة ضخمـة ، وبحمّى حـركـة لا تقف عنـد حـدّ بناءِ مفـاهيم الغـرب المادية ، في عقول الناشئة المسلمة والأجيـال المتلاحقـة منها ، بـل تعدَّتهـا الى تغيير عقائد المسلمين ، بتحويلهم الى المسيحية ، وارتدادهم عن الاسلام .

ولعل ظاهرة سنغور في السِّنغال ، وبوسـاما احمـد نامي في الفيليبـين ، اكبـر شاهـد على مـا نقول . حيث استـطاع التبشير المسيحي الاستعمـاري ، ان ينتزعهما من بيئتهما المسلمة ، وهمـا بعدُ طفـلان صغيران ، ويصنعهـما على عينـه ، وُفق مفـاهيمـه ومـراميـه ، ليعـود الأول نصـرانيـاً ، فيتـولى رئـاسـة الجمهـورية في بـلاده ، عامـلاً على نشـر المفاهيم التي غـرسها فيـه مستعمروه الفرنسيون ، علماً بـأن أسرتـه كلها ، بمن فيهم اشقّـاؤه وأقربـاؤه ، ما زالـوا مسلمين حتى الآن .

وليعـود الثاني الى بـلاده ، باسم الأب بـطرس باسـامـا احمـد نـامي ، لينشـر المفاهيم التي غـرسها فيـه مستعمروه الهـولنـديـون ، فكـان أول مسلم هناك ، يرتدي زيَّ القساوسة الكاثوليك .

وفي بلدنـا لبنان ، شـاهد آخـر ، هو عفيف عسيـران ، حيث كـان في الأصـل ، مسلماً ، من اسـرة عـريقـة في إسـلامهـا ، من مـدينـة صيـدا في الجنوب اللبناني ، انتزعه التبشـير المسيحي الاستعماري من أسـرته ، ليـرَبّيه هـو الآخر عـلى عينه ، حتى غـدا راهبـاً كـاثوليكيـاً ، يعمـل الآن عـلى قيـادة حركة تنصـير أطفال المسلمـين ، تحت غطاء تعليمهم ورعـايتهم ، فيما يسمى بقرى الأطفال (S O S) المرتبطة بجهات استعمارية خارجية .

ومـا دمنا قـد أتينا عـلى ذكر لبنـان ، فلا بـأس من ان نعـرض صـورة مـوجزة عن مـدى الخراب الـذي سبّبه الغـزو الاستعماري الفكـري والثقافي من خلال المؤسسات التبشيرية الاستعمـارية المضِلَّة في بلدي الصغـير لبنان ، الذي تتجاوز مساحته بقليل العشرة آلاف كلم[٢] ، وسكانه الثـلاثة مـلايين ، اكثرهم من المسلمين .

ولا أريـد بعـرضي هـذا ، ان أشـير الى التعليم في جميع مـراحله حتى الأولى منها ، فتلك مأساة يطول الحديث عن شجونها .

وإنما سوف أقصر حديثي عن مراحل التعليم العالي والثانوي .

فعلى مستوى التعليم الجامعي والدراسـات العليا في لبنـان ، يكفي ان نـذكر بـأن كل المؤسسـات الضخمة عـلى هـذا المستـوى ، هي مؤسسـات تبشيـرية استعمـارية ، الجـامعـة الأمـريكيـة ، جـامعـة الكسليـك او الـروح القدس ، جامعة القدّيس يوسف أو اليسوعية ، معهد الحكمـة العالي ، معهـد الشرق الأوسط ، كلية بيروت الجامعيـة ، كلية هـايكازيـان ، وأخيراً المعهـد الأنطوني التابع لجامعة لوفان ببلجيكا .

هـذه هي قلاع الاستعمـار في لبنان . وأود ان أشـير هنا ، الى حقيقـة مُـرَّة ومعبِّـرة ، تلقي ضـوءاً عـلى مـا نحن بصـدد تجليتـه ، ذلـك « أننـا لـو استعرضنا روّاد القـوميات في العـالم الإسلامي ـ وقـد اشرنـا اليها في بـدايات حديثنا كنمـوذج من نماذج التخـريب الاستعماري في مـرحلة الهدم ـ اقـول ، لو استعرضنـا رواد القوميـات في عالمنـا الاسلامي ، لـوجدنـا ان جميعهم من خريجي هذه الجـامعات ، وبخـاصة ، الجـامعة الامـريكية ببيـروت ، ونذكـر عـلى سبيـل المثـال لا الحصرِ : انـطون سعـادة ، بـاسـل كبيسي ، جـورج حبش ، قسطنطين زريق ، إنعام رعد ، الخ . . . »

ولا بأس بأن نذكر هنـا أيضاً ، ان عـدد المؤسسات التعليميـة الأجنبية في لبنـان ، قـد بلغ في الأربعينـات من هـذا القـرن ، حـوالى السبعمـائة مؤسسة ، منها خمسمائة مؤسسة فرنسيـة ، ومائـة مدرسـة انجليزيـة ، وثمان

وثمانون مدرسة امريكية ، واللغة المعتمدة في جميع مراحل التعليم في هذه المؤسسات ، هي إما الفرنسية او الإنجليزية . ومعظم هذه المدارس ، ذات فروع متعددة ، في احياء بيروت المسلمة وفي المناطق الاسلامية من لبنان ، في الجنوب والبقاع والشمال . ومختلطة في غالبيتها بين ذكور وإناث ، وتطبق في نظمها الداخلية ، من حيث لباس الطالبات ، كل ما يتنافى مع التشريع الاسلامي إذ تفرض على الطالبة المسلمة السفور ، وتحارب الحجاب ، كما ترفض ان يدرّس للطلبة المسلمين فيها الدين الإسلامي وتدير هذه المدارس والمؤسسات إما لجان اجنبية مستوردة ، او الرهبانيات المسيحية اللبنانية المرتبطة مباشرة بالكرسي البابوي في الفاتيكان ، وببعض الدول الاستعمارية ، بل بإسرائيل .

ورغم الجهود التي بذلها المسلمون اللبنانيون ، فإنهم لم يستطيعوا الوقوف في وجه هذه الهجمة من قبل الإرساليات التبشيرية الاستعمارية ، وذلك ، إما لقلة الإمكانات المادية ، او لعدم توفر الكوادر التربوية والعلمية التي تملكها هذه الإرساليات ، او للأمرين معاً ، مضافاً الى عدم الجدّية في النظر الى خطورة الموضوع ، واتخاذ الموقف الملائم للحد من آثاره السيئة .

وفي ختام هذه النقطة بالذات ، اجد من المفيد أن أضع بين ايدي القرّاء ، صورة تقريبية ، توضح المدى الذي بلغته ضراوة الحرب الفكرية ، التي جنّد لها الاستعمار الثقافي الكافر ، طاقات هائلة ، لحرب الاسلام والمسلمين ، هذه الصورة التقريبية ، استفدتها من تقرير دقيق ، اطّلعت عليه وهو من وضع الاستاذ الفاضل ، يوسف العظم ، عضو مجلس النواب الأردني سابقاً ، في ضمن محاضرة قيّمة له بعنوان « اين محاضن الجيل المسلم » القاها في الكويت عام ١٩٧٦ ميلادية .

وهذا التقرير ، يحكي بالأرقام ، واقع هذه الحرب الاستعمارية المفزعة ، في القارة الأفريقية فقط . يقول التقرير :

اولاً : المبشـرون في القـارة الأفـريقيـة بلغ عـددهم / ٩٨,٣٨٨ مبشراً .

ثانياً : المتعـاونـون معهم والمجنّـدون في عمـل دائم بلغ عـددهم / ٥,٥٠٠,٠٠٠ شخص .

ثالثاً : المعـاهد التعليميـة التـابعـة للكنيسـة مما هـو دون الكليـة ، او الجامعة والمعاهد العالية بلغ عددها / ١٦,٦٧١ معهداً .

رابعاً : الجـامعـات والكليـات والمعـاهـد العـاليـة ، التي تعمـل تحت إشراف المبشّرين بلغ عددها / ٥٠٠ كلية وجامعة .

خامساً : غدد المدارس اللاهوتية لتخريج القسس والرهبـان والمبشرين ، بلغ عددها / ٤٨٩ مدرسة .

سادساً : عـدد رياض الأطفـال التي يديـرها المبشـرون محاضن لـلأجيال المسلمة بلغ عددها / ١١١٣ روضة اطفال .

سابعاً : اولاد المسلمين الذين يشرف المبشرون على تعليمهم وتربيتهـم بلغ عددهم ٥,١٩٠,٦٠٠ .

ثامناً : ولكي تتضـح الصورة وَتَكْتِمَـل معالمهـا ، لا بد من ذكـر عـدد المستشفيـات التي أقـامتهـا الإرسـاليـات التبشيـريـة ، وعـدد الصيدليات التي توزع الدواء مجاناً . امـا عدد المستشفيـات فهو / ٥٠٠ مستشفى . وامـا عـدد الصيـدليـات فهـو / ١٠٢٤ صيدلية .

تاسعاً : ما خصِّص تحت تصرف البابا لرعايـة شؤون المسيحية في ديـار الاسـلام / ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار . ومـا تنفقه الإرسـاليـة التبشيـريـة الأميـركيـة والكنـديـة في افـريقيـا ٣,٠٠٠,٠٠٠ دولار . ومـا تنفقه الارسـالية التبشيـرية الإيـرلنديـة في افريقيـا / ٢,١٠٠,٠٠٠ دولار . ومـا تنفقه الجمعيـات البروتستـانيـة

الأخـرى / ١,٠٠٠,٠٠٠ دولار . ومـا تنفقـه الإرسـاليـة التبشيرية الآسيوية الهندية / ٣,٠٠٠,٠٠٠ دولار .

كل ذلك من جمعيات وإرساليـات أهلية غـير حكوميـة ، امـا ما تخصصـه الـدول ، فيمكن تصـوّره من خـلال المقـارنـة والدرس والتمحيص . . . »

* * *

هكذا ترك الاستعمار الثقافي ، كما رأينا وتعدمـون ، بصماتـه على كـل مَعْلم من معالم تراثنا وتاريخنا .

ولوَّث بسمومـه كل منبـع من منابـع هذا التـراث ، وشوَّه كـل صفحة من صفحات ذلك التاريخ .

وما زال يجثم على صدورنا ، من خـلال البرامـج التعليمية التي وضـع أصولها وخطوطها في المدارس والجامعات في بلادنا الإسلامية .

* * *

كيف السبيل ؟

ما أردنا بهـذا البحث أن نثير الشَّجن والحَـزَن ، وإنما الهـدف منه ، ان نقوِّمَ واقعنا كمسلمين ، على ضوء عمليات التخـريب الكبرى ، التي مـارسها الاستعمار الكافر فكرياً وثقافياً ، تمهيداً لتقويم ما اعوجّ ، وتـرميم ما تخلخـل من بنيان .

لا أعني بنيان الاسلام ، فالإسلام هو الرسالة الخـالدة ، التي وعـد الله سبحانه ، بأن ترث الأرض ومن عليها .

وإنمـا عنيت البنـاء الـروحي والفكـري ، والسيــاسي والاجتمـاعي ، والاقتصادي ، للإنسان المسلم ، الذي اهتـزّت شخصيته ، وغـامت الرؤيـة عنده ، نتيجة عمليات التخريب تلك .

بل يمكن القول بيقين راسخ ، إن من دلائـل إعجاز الإسـلام وربّانيـة مصـدره ، وتـأييـد الله وإسنـاده لـه ، حتى يتحقق الـوعـد الحق ، هـو هـذا الثبـات وذلـك الصمـود ، اللذان تميّـز بهـما هـذا الـدين ، في مـواجهـة كـل حملات التشكيك والتشويه ، ومحاولات النيل منه ، والتحريف فيه .

بحيث ، مـا إن بدأت إرهـاصات الصحـوة الاسلاميـة ، تلوح في أفق الأمـة المنكوبـة ، وتدرك هـولَ الكـارثـة التي حلّت بهـا ، نتيجـة انخـداعهـا بأباطيل الاستعمار الحـاقد وأضـاليله ، وتلفتت حواليهـا تفتش عن مخلِّص لها

مما هي فيه من ضياع وتيهِ وركام الجاهلية الحديثة ، وحالةِ الفصام الفكري ، والظلام الروحي ، والانحدار الخلقي ، فلم تجد بانتظارها غير الإسلام ، يُبلسِمُ الجراح ، ويشدّ الأزر ، ويشحذ الهمم والعزائم . . .

نعم ، الاسلام ، والاسلام وحده ، الذي بقي حياً نابضاً ، في عقول وقلوب العلماء المجاهدين ، الذين ما انفكّوا يدرؤ ون عنه وينافحون ، بأفكارهم وأقلامهم وأجسادهم ، غير هيّابين ولا وَجِلين ، ولا يائسين . لأنهم كانوا يدركون حقّانية دعوته ، وبطلان ادعاءات خصومه . ويعونَ بعمق ، أبعاد المؤامرة الكبرى ، واهدافها ، ومراميها . مستذكرين باستمرار قول الحق جلّ وعلا :

﴿ فأما الزبد فيذهبُ جُفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾

وبعد ، فكيف السبيل ؟

قد يرتأي البعض ، ان يهب مفكّرو الاسلام وعلماء المسلمين في هذا العصر ، ليخوضوا غمار حرب فكرية ، يُقصد منها الدفاع عن الاسلام ضد هجمات الاستعمار الثقافي الكافر برؤ وسه الثلاثة ، الاستشراق ، والتبشير ، والإلحاد .

ولا اعتقد ، بان في مثل هذه الرؤ ية كثيراً من الصواب ان لم اقل بأنها مجانبة للصواب وذلك :

أولاً : لأن في الاسلام ، كرسالة سماوية ، من المنطقية ، والانسجام ، والوضوح ، والواقعية ، ما يكفي لأن يدحض كل افتراء وتزوير ، أو تشكيك وتضليل . وذلك امر بديهي ، باعتبار ان هذا الدين ، هو من صنع خالق الانسان والكون والحياة ، وهذا الخالق ، هو الذي يتصف بكل صفات الكمال والجلال ، فلا بد وان يكون ما يصدر عنه معبّراً عن ذلك الكمال والجلال في أوضح صورة وأتمها .

ثانياً : **لأن العلة الحقيقية ليست في الإسلام ، وإنما هي كامنة في نفوس المسلمين ، نتيجة وقوعهم في هاوية قابلية الاستعمار ، حيث دُعوا الى الضلال فاستجابوا تحت ضغط انحطاطهم وضعفهم وفراغهم ، امام عدو شرس ، مزودٍ بالخبرة والقوة ، والشعور بالتفوق والغلبة ، بعد خروجه منتصراً ، من معركته الضارية مع الكنيسة الأوروبية ، بكل أذرعها الطويلة القادرة ، وشرب نخب موتها الأبدي .**

وإذا صح ذلك ، فإن ما يقتضيه المنطق . هو ان تُصْرَفَ الهمم ، والأفكار ، والأموال ، والأقلام ، الى تعليم المسلمين المنكوبين بالاستعمار ، كيفية الدفاع عن أنفسهم ، بما في الاسلام من وسائل الدفاع والهجوم ، فإذا فعلنا ذلك ، أفزعنا هذا الوحش الكاسر ، وأخفناه ، ونقلناه من موقع الهجوم ، الى موقع الدفاع ، والانكماش .

وفي تقديري ، أن أسلوب الدفاع عن الاسلام ضد هجمات الاستعمار الثقافي الكافر ، قد يكون موضع ترحيب وتأييد من قبل هذا الاستعمار نفسه !!

أتدرون لماذا ؟

لأنه سوف يرى فيه صرفاً للجهود ، وهدراً للطاقات الاسلامية ، وتنفيساً لحالة الغيظ والاحتقان عند أفراد الأمة ، في نقطة بعيدة كل البعد عن مكمن الداء ، وهذا ما لن يضيره في شيء ، ولن يؤثر عليه شيئاً .

بل إن هذا ما يعمل الاستعمار من أجله باستمرار .

إن النقطة المركزية ، التي يعمل العدو على إبعاد أنظار المسلمين عنها ، هي اكتشافهم لمصدر قوتهم ، واستغلالهم لهذا المصدر . بما يستبطن من طاقات وقُدُرات ، في سبيل خلاصهم من أدوائهم بعد تشخيصها . ولذا نراه في كثير من الأحيان ، وعلى امتداد رقعة العالم الإسلامي ، يفتعل

معارك جانبية ، بواسطة بعض عملائه ، بين المسلمين انفسهم ، وما ذاك ، إلا ليحقق ما ذكرناه ، من صرف انظارنا عن بؤرة المشكلة التي نعاني منها .

وعلى ضوء كل ما تقدّم ، نورد بعض المقترحات المتواضعة ، التي أرى فيها منطلقاً للبحث ، من اجل وضع تصوّر كامل ، وبرنامج لعملية التقييم الشاملة لواقع المسلمين ، وصلاً الى النهوض والعودة بهم الى حظيرة الاسلام والعودة بالاسلام ليحتل مركزه القيادي والريادي في الحياة الإنسانية ، وليشكل من جديد ، نسيج الحياة اليومية للأمة الإسلامية . وهذه المقترحات هي :

أولاً : إنشاء لجان في كل بلد من البلدان الاسلامية مكوّنة من شخصيات إسلامية فكرية متخصصة ، يكون عملها دراسة البرامج التعليمية التي تدرّس عادة في اقطار المسلمين ، والعمل على حذف كل السموم التي دسّها الاستعمار الثقافي الكافر بين سطورها ، وفي موادها ، وإعادة صياغتها من جديد ، وفق مفاهيم الإسلام وتاريخه ، وحضارته .

ولا بد من التنبيه هنا ، على ان هذه العملية لا بد وان تتناول عدة مواد تعليمية ، تأتي في طليعتها مواد العلوم الانسانية .

ثانياً : تشكيل لجان متخصصة ، من علماء دين مسلمين واعين لدور العالم كقائد في المجتمع ، مع وعيهم لروح العصر وتياراته ، ومن علماء في حقول التربية وعلم النفس ، من المسلمين الملتزمين بالاسلام فكراً وسلوكاً ، تنكبّ على وضع برامج تعليمية لمادة الإسلام في جميع المراحل الدراسية ، مع العمل على توحيد هذه البرامج في جميع الأقطار الإسلامية بعد ترجمتها بشكل سليم ، لكل قطر حسب لغته . وينبغي ان

يـراعى في كـل مـرحلة من هـذه المراحـل ، المستـوى العقـلي للطفل كي ينسجم مع الأفكار التي تلقى اليه عن الاسلام .

ثالثاً : إنشـاء المؤسسات التـربـويـة الاسـلاميـة الخـاصـة ابتـداء من روضات الاطفال وحتى الجامعات وإنما قيدنـا هذه المؤسسـات المقتـرحة بـأن تكون خـاصة ، نـظراً لاعتقـادنـا الجـازم ، بـأن حكـام الشعـوب الإسـلامية ، إنمـا هم ـ في غالبيتهم ـ من العملاء والسماسـرة للاستعمـار في اقطارهم ، وظيفتهم تنفيـذ مخططاته التخريبية بـين شعوبهم ولـذا فلا يـرتجى منهم اي خير لـلإسلام والمسلمـين وليس هؤلاء بالتـالي ، بصـدد اي تفكـير من اجل العمل لإصـلاح ما أفسـده التخريب الاستعمـاري . ولكن لا بـد من تـوضيـح ، ان ليس المقصـود بـإنشـاء هـذه المؤسسـات ، إعلاء بنـائها ، وتكثـير هذا البنـاء ، ففي المجال التربوي يُقدَّم السؤال بكيف ؟ على السؤال بكم .

بـل معنى ذلـك ، ان يـدخـل في صميم الإنشـاء، إعمـارهـا بـالخبرات العلميـة على صعيـد الجهاز التـربـوي المتخصص في مجـالات التعليم والتثقيف ، والمتصف بـدرجـات عـاليـة من أخلاق الاسلام فكراً وسلوكاً .

وذلـك لخطورة الـدور الذي يقـوم به عـلى نـاشئـة المسلمـين . بـاعتبار ان الـطفل في سنيّـه الأولى ، يكـون سريـع التقليد لمن هـو اكبـر منـه ، وبخـاصـة استـاذه في المـدرسـة ، فكلما كـان الاستـاذ مستقيم الفكر والسلوك ، راقي التهـذيب والأخلاق ، كلما كان أجدى للإسلام ، وللعملية التربوية الاسلامية بشكـل خاص .

وأُلْفِتُ النـظر هنا ، الى ان الأنثى هي الأنفـع ، بل الأجـدر ،

لتولي شؤون رياض الأطفال ، نظراً لما تحمله بين جنباتها من حنان وحب وعاطفة . وهذه هي المقومات الأساسية للأم الناجحة ، بشرط ان تكون ملتزمة بالاسلام فكراً وسلوكاً ، ومن ذوات الاختصاص العلمي ، في الحقل التربوي العام ، وفي إدارة العمل وأساليبه ، في حدائق رياض الأطفال .

ومن هنا ، تتضح أهمية انشاء دور اسلامية ، لتخريج المعلمين والمعلمات ، من الملتزمين والملتزمات بالإسلام فكراً وسلوكاً ، يُرَبَّوْنَ وينشّؤون تنشئة علمية إيمانية ، ويدرسون المفاهيم التربوية الاسلامية ، وذلك بأحدث الطرق التعليمية ، نظرياً وعملياً ، وتكون برامج التعليم في هذه الدور ، موحّدةً في جميع اقطار المسلمين .

رابعاً : إنشاء صندوق دولي اسلامي شعبي ، له فرع في كل قطر إسلامي ، يتولى شؤونه ويقوم عليه خبراء ماليون ، واجتماعيون ، من الملتزمين فكراً وسلوكاً بالاسلام ، وتكون في طليعة اهتمامات هذا الصندوق ، تنفيذ مشاريع صحية في الأقطار الاسلامية ، من مستشفيات ، ومستوصفات ، ومصحات عقلية ونفسية ، وكليات طب وتمريض وصيدلة ، ومختبرات ، ويكون الطابع الاسلامي الملائم بارزاً في كل بهو ، وممر ، ومدخل ، وغرفة ، ونشاط ، ويتم تنفيذ هذه المشاريع ، وفق دراسات علمية إحصائية ، ووفق سُلّمِ أولويات بين اقطار المسلمين .

ويتم تمويل هذا الصندوق من جباية فريضة الزكاة من المسلمين . وفق سياسة جباية تخضع لحكم الله في هذه العبادة ، إضافة الى بقية موارد بيت المال في الدولة الاسلامية ، والاشتراكات والهبات التي يمكن ان يقدمها اثرياء

المسلمين كمساهمة في انجاح هدف الصندوق . واذا تم هذا العمل ، نكون :

١ - قد حاربنا الاستعمار الكافر بنفس السلاح الذي استعمله ضدنا .

٢ - نكون قد أغلقنا أمامه باباً واسعاً ، كان يُرفد إضلالُه من خلاله ، بالملايين من الضحايا المسلمين ، الذين - كما سبق وقلنا - كان يستغلّ حالة مرضهم وضعفهم وفقرهم ، ليقايضهم في مقابل مساعدتهم في تخطيها ، على عقيدتهم وقيمهم ومقدساتهم .

خامساً : تنظيم المسلمين الملتزمين بالاسلام فكراً وسلوكاً ، من الذين يتواجدون في اوروبا وأمريكا ، بقصد الدراسة او العمل ، في قطاعات وخلايا مترابطة مركزياً ، بحيث يؤخذ بعين الاعتبار ، المكان والاختصاص ، فيتوجهون من خلال هذا التنظيم كل في قطاعه ، الى البيئة التي يكون متواجداً فيها . وينصبّ جهد هؤلاء ، على نشر مفاهيم الاسلام بين الأوروبيين والأمريكيين انفسهم ، وبيان عقلانيته وواقعيته ومحاسنه .

في نفس الوقت ، الذي يكشفون فيه زيفَ المفاهيم الرأسمالية وعبثيتها ، واباطيلَ الإلحاد الأيديولوجي وتناقضات الاشتراكية العلمية المدّعاة ، وبيان إفلاسهما على صعيد الانسان الفرد ، كما الاجتماع الانساني .

وتقدِّم الخدمات والمساعدات لمستضعفي هذه الشعوب ، مع التعاطف معهم في قضاياهم العادلة . وذلك في اعتقادي ينقل المعركة الى عقر دار الاستعمار الكافر ، إضافة الى انه يذلل

عقبات ويختصر مسافات ويوفر كثيراً من الجهود .

سادساً : لقد سبق وبيَّنا ، كيف ان التبشير المسيحي ، كان احد الأعمدة الرئيسة . التي استند اليها الاستعمار الكافر ، في إنجاح عمليته التخريبية الكبرى ، لشخصية أمتنا في مرحلة الهدم والبناء اللتين نفذهما .

بل يمكن القول : بأن هذا التبشير ، كان رأس الحربة لهذا الاستعمار ، على الصعيد الفكري والثقافي بالخصوص . والتبشير ، ليس مفهوماً مجرداً ، وإنما هو أمر حسي متجسد في مئات الألوف من الرهبان والراهبات والقسس ، زحفوا بثيابهم البيض والسود ، كأنهم غرابيب ، على اقطارنا الاسلامية ، بحماية جيوش الكفر المدججة بالسلاح ، ليفسدوا عقائد المسلمين وينهبوا ثرواتهم . فأسأل : بماذا جابهناهم ؟ أما من حيث الكم ، فقد جابههم علماء في شتى اقطار العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً ، يعدون بقليل من العشرات ، قد لا تتجاوز نسبته الى العدو الزاحف عددياً ٣ ٪ . وهذا يتنافى مع الفباء قواعد المجابهات والمواجهات في التاريخ .

ناهيك عن كونه يكشف لامنطقية في العمل والتحرك ، واما من حيث الكيف ، فإن نسبة الواعين لدورهم ، والمتقنين لأساليب الدعوة الصحيحة ، والعمل الرسالي الهادف ، ضئيلة جداً بين هذه العشرات القليلة من العلماء .

وهنا بيت القصيد ، كما يقال !؟

فإن السبب ـ في فهمي ـ لهذا الضعف العلمائي عندنا ، نحن المسلمين ، إن من حيث الكم ، أو الكيف ، يكمن في خلل

ما ، موجود في جامعاتنا الاسلامية ، وحوزاتنا العلمية .

ان هذه الحوزات والجامعات ، مع الأسف الشديد ، بحسب التجربة التي عشناها في حاضرة النجف الأشرف ، وما املكه من معطيات ، حول سير الأمور في الحوزة العلمية بقم المقدسة ، وبقية الحوزات العلمية في ايران الاسلام ، وكذلك جامعات الأزهر الشريف ، والزيتونة ، والقيروان ، ولكهنو ، وغيرها ، إن هذه الحوزات والجامعات ، بين ما لا نظام واضح المعالم فيها ، يحدد مراحل الدراسة وشروطها وحدودها ، من حيث الشكل او المضمون او كليهما ، وبين ما فيه انظمة محددة ، ولكنها تصب في مجملها ، في غير صالح صُنعِ العالم النافع للإسلام والمسلمين .

وان كنت أدرك ، بأن بداية ضبط الحوزات العلمية والجامعات الاسلامية في جمهورية ايران الإسلامية ، وتنظيمها ، لجعلها تنسجم مع متطلبات المرحلة ، حيث عاد الإسلام ليحكم ويتحرك قد انطلقت بجد وإخلاص ، في سبيل تحقيق هذا الهدف الجليل . ولذا ، فإنني اطرح هنا ، ضرورة العمل السريع الواعي ، من اجل تشجيع شبابنا المسلم المثقف ، وكذا شاباتنا المسلمات المثقفات ، على الإلتحاق بركب طلبة العلوم الإسلامية ، والتفقه في الدين ، بحيث لا تخلو قرية من قرى المسلمين في اي قطر من اقطارهم من عالم ، وهذا يعني ، تجنيد ما لا يقل عن مليون شخص في جيش العلم ، من العلماء الدعاة ، ينتشرون فوق كل أرض ، وتحت كل سماء ، للعمل على اعلاء كلمة الله في الأرض .

ذلك كله ، متزامناً مع العمل السريع الواعي لتحديث

حوزاتنا العلمية ، وجامعاتنا الدينية ، مع الحفاظ على أصالتها ، لتساير تحقيق هذا الهدف العظيم .

سابعاً : لا يخفى ما للإعلام من دور خطير في حياة الأمم والشعوب ، في كل دور من ادوارها ، ونجاحه في هذا العصر الذي نعيش فيه . ذلك ان الإعلام هو الكوى ، التي تطل منها أية أمة على ما حولها من امم الأرض .

وبمقدار ما تكون هذه الكوى مؤهلة لتسرّب النور والهواء النقي ، بمقدار ما تتنفس تلك الأمة بشكل صحي ، وترى بشكل سليم كل شيء على حقيقته .

ولإدراك الاستعمار الكافر ، اهمية الإعلام بالنسبة لمخططاته التدميرية في عالمنا الاسلامي ، فقد امسك بزمام الإعلام من كل جوانبه ، بحيث صمم هو بنفسه تلك الكوى ، بحيث تحجب عنا نور الحقيقة التي تفضح زيف ادعاءاته ، وسمح بمرور ما يناسب مصالحه من خلالها فقط ، وتحكم بفتحها كلما هبت رياح قواصف ، تحمل بين ثناياها النتن والعفن ، وإغلاقها، كلما جرت الريح بعرف طيب ، حتى لا تصلنا سماته المنعشة . مما سبب للأمة مزيداً من الجهل والتخلف والضياع .

ولا نستثني من وجوه الاعلام في هذه الحقيقة المرة أي وجه ، فالصحف ، والمجلات ، والنشرات ، ودور الاذاعة ومحطات التلفزة ، والمسرح ، والسينما . وبكلمة جامعة ، المقروء ، والمرئي . والمسموع ، كله بيد الاستعمار في عالمنا الاسلامي ، أو بيد عملائه وصنائعه ، خاصة اذا عرفنا بأن نسبة ٨٠ ٪ من الاعلام العالمي بكل جوانبه المذكورة تملكه او تسيطر عليه الصهيونية العالمية .

من هنا ، لا بد من الوقوف في وجه هذه الحقيقة المزعجة ، وذلك بالعمل على إنشاء إعلام إسلامي متخصص ، يقوم على اسس حديثة مدروسة ومبرمجة ، يكون الهدف الأساس منه، القيام بإعلام مضاد للإعلام الكافر في مجتمعاتنا الاسلامية ، ويشمل الكلمة المسموعة من خلال الاذاعات ، والمقروءة من خلال المطبوعات ، والمرئية من خلال محطات تلفزة ، تشرف عليها ، وتديرها لجان يكون اعضاؤها من ذوي الكفاءات الإعلامية بأنماطها الحديثة ، وممن يؤمنون بالاسلام فكراً وسلوكاً . بشرط ان تتحرر هذه المؤسسات الإعلامية الاسلامية ، من اية سيطرة ، أو أي إشراف لحكومات الدول التي تنشأ على ارضها . وذلك لسبب بسيط اشرنا اليه في الاقتراح الثالث الآنف الذكر .

خاتمة المطاف

واخيراً ، فهذه مقترحات عملية نوردها ، لا للترف الفكري ، ذلك ، ان الاسلام « إعلان عام لتحرير الإنسان ، وهو منهج حركي واقعي ، يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة .

يواجه حواجز الإدراك والرؤ ية بالتبليغ والبيان .

ويواجه حواجز الأوضاع والسلطة بالجهاد المادي ، لتحطيم سلطان الطواغيت ، وتقرير سلطان الله .

والله غالب على امر ولو كره الكافرون »

والحمد لله اولاً وآخراً

موقف الاسلام
من
التلاعب بمقدّرات الأمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لقد أرْسَلنا رُسُلَنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقِسْط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلَمَ الله مَنْ ينصُرُه ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز ﴾

الحديد / ٢٥

إن المقيـاس لاتصاف اي نـظام من الأنظمـة بأنـه عادل ، وإنسـاني ، وحكيم ، هو مدى ما يوفّـره ذلك النـظام لمحكوميـه من عدالـة ، وما يقـدّمه لهم من سعادة ، تتناسب مع كراماتهم الإنسانية .

ومما لا إشكـال فيـه ، أنـه ليس من العـدالـة في شيء ، ان ينقسم المجتمع الى فئتين ، تفصل بينهما فجوة لا يمكن تخطيها بحال ، فئةٍ تتربّـع في القمـة . واخرى تتـردّى في الحضيض . فئةٍ تملك ان تـأمـر وتتـأمّـر . وفئـةٍ اخرى ، لا تملك إلا ان تؤمر فتطيع ، ويُتأَمرُ عليها فتطاطىء صاغرة .

ومما لا إشكال فيه أيضاً ، أنـه ليس من الكرامـة الإنسانيـة في شيء ، ان يكـون المجتمع البشـري ، على ايـة بقعة من الأرض ، مؤلفـاً من طبقتين اثنتـين من بني الإنسـان ، طبقـةٍ تعيش وسط مـظاهـر البـذخ ، والتـرف ، والغنى الفاحش . وطبقةٍ اخـرى ، تعيش في بُؤَرِ الفاقـة ، والقرف ، والفقـر المدقع .

طبقة ، يكاد كل واحد من أفرادها ينشَقُّ من الشِّبع .

وطبقةٍ اخرى ، يكاد أفرادها يتهاوَوْنَ تحت سيـاط الجوع ، ويتحـوَّلون الى أشباحٍ من جرّاء العوز والحرمان . . . !

ومن الـواضـح ، انـه ليس من الحكمـة في شيء ، أن يعمَـدَ النـظام ـ أي نظام ـ ، ليَحُولَ دون هذا الانقسام على هذا الشكـل الذي ذكـرنا ، في المجتمع الذي يُـظِلُّه ، الى الظواهـر والشكليات ، فيُـرممها ، بعمليـة ترقيعيـة من هنا ، وعملية تـرقيعية من هنـاك ، إذ إن ذلك ، سـوف يكون أقـرب الى تعقيد المشكلة ، منه الى حلِّها . بل إنـه تمويـه ، وتدجيـل ، تأبـاه الحكمة ، ويمجُّه المنطق السليم . إذ سرعان مـا ينفجر الـوضع الاجتمـاعي المهترىء ، بشكل يستعصي على عمليات الترقيع والعلاج . . . !

بل الحكمة تقتضي ، ان ينفذ ذلك النـظام ، ـ متجاوزاً كـل الظواهـر والشكليات ـ الى الأعماق التي انبثقت المشكلة من رَحِمِهـا ، الى جذور الـداء ليستأصله ، وحينئذٍ يستطيع ان يقضي على الداء نفسه . . .

ونحن ، عنـدما ننـادي بذلـك ، نعلم سلفاً بـأنها صرخـة في واد . ؟! ولكنها صرخة الحق والعدل .

إذ كيف يمكن لأنـظمة تحكم الأمم والشعـوب بمنطق الـظلم والجـور ، أن تستجيب لصرخة العدل والحق ؟!

او كيف تنتـظر من حكّـام استـولـوا عـلى مـراكـزهم السلطويـة ـ في الأصـل ـ بنـزعـة الافتـراس والقهـر ، ليتحكمـوا بـالبـلاد والعبـاد ، وفق اهـوائهم ، وبدافـع نزعتهم الحيـوانيـة تلك ، ان يعـاملوا مَن تسلطوا عليهم بغير حق ، معاملة تليق بكرامة الإنسان . . . ؟!

مـاذا تعني عندهم ألفـاظ ، الكـرامـة ، والحق ، والعـدل ، والخـير ، والقيم . . . ؟

بل ماذا يمكن ان تثير في اعماق نفوسهم أنَّةُ مظلوم ، أو نأمةُ جائع ؟

لا شيء . . . !

ومن هنا ، كان في الاسلام الرجاء ، والمخلّص .

إذ إن الاسلام ، وهو نظام السماء الى أهل الأرض ، قد جاء ليأخذ بيد هذا المخلوق الى كل ما فيه سعادته ، وكرامته ، ويبعده عن كل ما فيه شقاء له ومهانة .

قال تعالى ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾[1]

ومن هنا ، تفرّد الاسلام من بين كل النظم المعروفة ، في معالجته لكل جوانب الحياة الإنسانية ، ومواجهته لكل مشاكلها .

لا سيما المشكلة التي نحن بصددها

مشكلة الفقر والغنى في المجتمع .

الغنى المفرط ، والفقر المدقع .

حيث لم يكتف هذا الدين ، بمعالجة الظاهر ، دون النفود الى الخلفيات الكامنة وراءها . ولا بدراسة السطح ، دون التغلغل في الأعماق .

أساس المشكلة ؟

يعتبر الاسلام ، ان الفقر المدقع ، والغنى المفرط ، بناءٌ علوي ، لأساس هو عبارة عن احد امرين ، أو كليهما معاً .

الإنتاج غير السليم . والتوزيع الغير العادل .

ومن هنا ، نجد الاسلام يركّز دائماً ، على ضرورة توافر الإنتاج السليم ، والتوزيع العادل في المجتمع ، كي يقضي على المشكلة الآنفة

---

(١) الحديد / ٢٥ .

الذكر . وإلا ، فإن الانتاج السليم لا قيمة له ، فيما لو فقدت العدالة في التوزيع . وكذلك العكس . فضلاً عن انتفاء كلا الأمرين .

مصبّ البحث

ونحن ، سوف لن نخوض في الحديث عن الإنتاج وموقف الاسلام منه ، باعتبار ان ما يتصل ببحثنا هنا ، هو التوزيع .

ولكن ، لماذا ؟

ولكن ، لماذا اهتمام الاسلام هذا بالتوزيع ؟

ذلك ان سوء التوزيع - بنظر الاسلام - يؤدي حتماً ، الى تكدُّس الثروات في أيد قليلة ، مما ينجم عنه خلل في التركيبة البشرية ، يؤدي الى حدوث الانقسام الخطير في المجتمع ، هذا الانقسام ، الذي يشكِّل الوجه البشع للمشكلة المطروحة .

منابع سوء التوزيع

سوء توزيع الثروة في المجتمع ، مسبب في نظر الاسلام ، عن عدة أسباب ، يمكن ان تعبّر عنها جملة واحدة هي : التلاعب بمقدرات الأمة .

فالتلاعب بمقدرات الأمة ، إذن ، إطار عام ، تندرج تحته جزئيات ، وتدخل فيه ألوان كثيرة ، يصلح ان يكون كل واحد منها سبباً في حد ذاته ، لمشكلة سوء التوزيع .

وعلى امل العود معكم - ان شاء الله - الى الحديث عن جميع هذه

الأسبـاب في وقت آخـر ، سـوف نحصـر بحثنـا هنـا ، في الإطـار العـام المذكور ، اعني : ألتـلاعب بمقدّرات الأمـة ، خاصـة وان ظاهـرة الاستغلال عند فئات كثيرة من الناس ، والتي هي وليـدة طبيعية للجشـع والطمـع ، قد استشـرت ، واستعرت في ظـل الظروف القـائمـة ، حيث نشـأ عنهـا بشكـل واضح ومؤلم ، ذلك التلاعب المزري بتلك المقدرات . . .

وكما قلنا آنفاً ، إن الاسلام لا يقصر نظرتـه على سـطح الظاهـرة ، أنّى كـانت ، وكيفـما كـان ، دون ان يتغلغـل في الأعمـاق ، وينـظر الى الصـورة نـظرة مستوعبـة ، تأخـذ بعين الاعتبـار ، لا الأسباب فقط ، بـل الأسـاليب والاشكال أيضاً ، كوسيلة منه ، لإغـلاق كل منـافذ المشكلة ، ومعـالجة كـل مظاهرها .

ومن هنـا ، نجـد ان الاسـلام ، يحصـر أسبـاب مشكلة التـلاعب بمقدرات الأمة بالتالي :

١ ـ الرِّبا .

٢ ـ الغَبْن . ويدخل فيه التلاعب بالموازين والمكاييل

٣ ـ الغش .

٤ ـ الاحتكار .

كل هذه الأسباب ، لمشكلة التلاعب بمقـدرات الأمة ، يقف الاسـلام منها موقفاً صلباً ، حاسماً لا تردد فيه ، ويشن عليهـا وعلى مـرتكبيها ، حـرباً شعواء لا هوادة فيها .

ونحن ، سـوف نرى بـاختصـار ، من خـلال هـذا البحث ، وبشكـل ميسَّر ، كيف يقوم الإسـلام بذلـك . وكيف خطط نـظريّاً ، ونفـذ عمليـاً ، من أجـل قمع هـذه الأسباب في العمق ، تـوصلاً الى خنق مشكلة التـلاعب بمقدرات الأمة ، تحقيقاً لعدالة التوزيع .

١ ـ الربا

يقسم فقهاء الاسلام ، الربا الى قسمين : ربا المعاملة ، وربا القرض .

أ ـ ربا المعاملة

والمقصود به ، هو « بيع احد المثلين بالأخر مع زيادة عينية في احدهما . كبيع مائة كيلو من الحنطة ، بمائة وعشرين منها . او خمسين كيلو من الحنطة بخمسين كيلو ودينار . أو زيادة حكمية ، كبيع عشرين كيلو من الحنطة نقداً ، بعشرين كيلو من الحنطة نسيئة . . . »

ب ـ ربا القرض

والمقصود منه ، ان يقرض انسان لآخر ، مبلغاً من المال كعشر ليرات مثلاً ويشترط عليه ان يردّها عشرين ليرة . او يقرضه طناً من الحنطة الرديئة ويشترط عليه ان يرده من الحنطة الجيدة وهكذا .

التحريم في القرآن الكريم

ونحن ، عندما نرجع الى الاسلام في مصادر تشريعه من كتاب

وسنـة ، نجد انـه قد حـرَّم الربـا بقسميه ، تحـريماً مغلّظاً جـازمـاً ، لا يقبـل التأويل ، واعتبره من الكبائر ، التي توجب لصـاحبها عـذاب جهنم ، وبئس المصير ، قال تعالى :

﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الـذي يتخبطه الشيـطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربـا وأحل الله البيـع وحرَّم الـربا فمَن جـاءه مـوعـظة من ربـه فـانتهى فله مـا سلف وأمـره الى الله ومَنْ عـاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾(١)

وقال تعالى :

﴿ يـا أيها الـذين آمنوا لا تـأكلوا الربـا أضعـافاً مضـاعفـة واتقـوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التي أُعدَّت للكافرين ﴾(٢) .

ولم يكتفِ الإسلام بالتحريم المغلّظ هذا ، على هذه الجـريمة الكبـرى ، مع ما رتّب عليه من عذاب النار في الآخرة ، ومـا اقترن بـه هذا التحـريم ، من سمة تستوجب لصاحبها التحقير والخزي في الـدنيا ، حيث صـوّرت الآية الأولى المـرابي ، ألعوبـة بيد الشيـطان ، يتقـاذفـه في كـل اتجـاه ، حتى ليبـدو كـالتائـه الذي لا يهتـدي الى هدف وهـذا المعنى يستفاد من كلمـة « **يتخبـطه الشيـطان من المس** » في الآية الكـريمة الآنفـة الذكـر ، لأن الخبط في اللغـة : هو المشي على غير استواء .

اقـول : لم يكتف الاسلام بـذلك ، بـل عاقب المـرابي عقوبـة دنيـويـة عـاجلة ، بأن حكم عليـه بحرمـة التصرّف بـالزيـادة عن اصل مـالـه الـذي أقـرضه أو بـاعـه للمـدين أو من المشتـري ، وهـذا يكشف بـوضـوح عن أن الاسلام أبطل ان يكون الربا سبباً من أسباب التملك ، قال تعالى :

(١) البقرة / ٢٧٥ .
(٢) آل عمران / ١٣٠ ـ ١٣١ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون ﴾[1]

التحريم في السنة الشريفة

والتحريم الوارد على الربا بقسميه ، لا يقلّ تغليظاً في السنة الشريفة عما هو في الكتاب الكريم ، فقد وردت روايات كثيرة فيها نصّت على ذلك ، منها : [2]

ـ ما روي عن النبي (ص) في وصيته لعلي (ع) : يا علي، الربا سبعون جزءاً ، فأيسرها مثل ان ينكح الرجل أمه في بيت الله الحرام . يا علي ، درهم ربا أعظم عند الله ، من سبعين زنية كلها بذات مَحْرَم في بيت الله الحرام . . »

ومنها : ما روي أيضاً عن رسول الله (ص) قال « مَنْ أكل الربا ، ملأ الله بطنه من نار جهنم بقدر ما أكل ، وإن اكتسب منه مالاً لم يقبل الله منه شيئاً من عمله ، ولم يزل في لعنة الله والملائكة ، ما دام عنده منه قيراط واحد . . »

ومنها : ما روي عنه (ص) « آكل الربا ، ومؤكله وشاهداه وكاتبه ، إذا علموا ذلك ، ملعونون على لسان محمد (ص) يوم القيامة . . »

---

(١) البقرة / ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٢) راجع في كل هذه الروايات كتاب وسائل الشيعة للشيخ الحر العاملي ١٢ / ٤٢٣ وما بعدها ونيل الأوطار للشوكاني ٥ / ٢١٤ . وروضة الكافي للشيخ الكليني ٥ / ١٤٥ وما بعدها .

هدف المرابي الأساسي ، الذي يبغي تحقيقه من خلال تعامله الربوي ، هو كنز المال وزيادته باستمرار ، خاصة ، وانه يجنيه بلا بذل مشقة منه أو كبير عناء ، فيتناسب ذلك مع غريزة حب التملك فيه .

والله سبحانه ، وهو خالق هذا الانسان ، لم يتركه ، ليرتكس في حمأة ضلالته وجهالته ، ينساق وراء وساوس الشيطان لنفسه الأمّارة بالسوء ، وإنما شمله بلطفه ورعايته ، ورحمته وعنايته . ولذا لم يكتف بحسم أمر الربا على الصعيد التشريعي ، بإصداره الحكم الصارم بتحريمه بالشكل الذي رأيناه ، والتنفير عنه بالصورة التي شاهدناها في الكتاب الكريم ، والسنة الشريفة ، وبإلغاء كل أثرٍ له على صعيد المسلكية .

بل سنَّ تشريعات مالية أخرى ، ملزمة للإنسان ، كالزكاة ، والخمس ، والكفارات ، والنذور المستحقة ، وغير ملزمة كالصدقات ، والهبات ، والقروض المجرّدة عن النفع المادي الربوي .

والغرض من هذه التشريعات بقسميها ، تطهير النفس الإنسانية ، من الجشع والطمع ، والبخل ، وغير ذلك من الأمراض النفسية والخلقية ، التي هي في الحقيقة مناشيء حتمية ، لانغماس الإنسان في الدنيا هذا الانغماس الذي كلما تعمّق وتجذّر في اعماق هذا المخلوق ، كلما قابله بُعدٌ عن الله ، وتنكر لعالم القيم .

فهذه التشريعات الإلهية ، تهدف إلى إحداث عملية تربوية كبرى ، تفجّر الإنسانية الجوهرية الكامنة في هذا الإنسان ، ليكون كما اراده الله ، لبنة صالحة في بنية مجتمعه العابد .

ونحن عندما نتأمل النصوص الدينية من آيات وروايات ، تطل منها

هذه الحقيقة المستهدفة علينا ناصعةً جليّة لا غموض فيها ، خصوصاً عندما نتأمل التركيز في تلك النصوص على المقارنة بين ظلمة الربا وظلمه ، وبين إشعاعة الإنفاق المجرد إلا من طلب رضوان الله ، ونور السماحة الذي ينبثق من روح المتصدِّق أو المقرض ، فينعكس على المجتمع رضا وطمأنينة ومحبة وعدلاً . قال تعالى : ﴿ **يمحق الله الربا ويربي الصدقات** ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ (٢) .

﴿ **وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه** ﴾ (٣) .

﴿ **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوفَّ اليكم وانتم لا تظلمون** ﴾ (٤) .

والذي يؤكد هذا الهدف التربوي ، هو تحريم الاسلام على الدائن أن يطالب المدين إذا كان هذا الأخير معسراً ، بل فرض عليه الصبر والنظرة الى ان يوسر قال تعالى : ﴿ **وإن كان ذو عسرة فَنَظِرَةٌ الى ميسرة وأنْ تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ (٥) . بل ان الاسلام ، وان كان قد حثَّ الإنسان على الصدقة وبذلها للفقراء ، إلا انه ، مساهمة منه في تخليص الإنسان من انحرافاته النفسية كالرياء والسمعة وحب الجاه والبروز ، والتي قد تنغص عليه حياته ، وتفسد العلاقات الاجتماعية وتحبط ما يمكن ان يترتب على هذه العبادة من رضا الله وثوابه ، فقد اعتبر صدقة السر افضل من صدقة العلن ، قال تعالى : ﴿ **إن تُبْدوا الصدقات فَنِعِمّا**

---

(١) البقرة / ٢٧٦ .
(٢) البقرة / ٢٧٤ .
(٣) البقرة / ٢٧٠ .
(٤) البقرة / ٢٧٢ .
(٥) البقرة / ٢٨٠ .

هي وإن تُخْفُوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفّر عنكم سيئاتكم والله بما تعملون خبير ﴾ [1] .

وباعتبار أن الفائدة الربوية ، انما تكون أوضح ما تكون في القروض ، وربما بلحاظ أن ربا القرض هو اكثر شيوعاً وتداولاً بين الناس في كل زمان ومكان ، فقد اعتنى الاسلام ، الى جانب تحريمه المطلق للقروض التي يتوسل بها الى الفائدة الربوية ، وتحريمه لكل ما يمكن ان يترتب عليها من آثار في الخارج اعتنى عناية كبيرة ، بِحَثٍّ أصحاب الأموال على إقراض المحتاجين من أموالهم من دون توخّي أية فائدة مادية ، بل اعتبر القرض من اعظم القربات اليه سبحانه ، وليكن الدافع في القرض هو تحصيل هذه القربات ، والفوز برضوان الله سبحانه ونزّل المقرض منزلة المتعامل مباشرة مع الله ، ووعده بأنه سوف يضاعف له ما بذل اضعافاً مضاعفة في الدنيا ، بتنمية امواله في حلال وزكاة ، وفي الآخرة بمغفرته وشموله بواسع رحمته قال تعالى :

﴿ مَنْ ذا الذي يُقرِض الله قرضاً حسناً فيضاعِفَهُ له اضعافاً كثيرة والله يقبِض ويبصُط واليه تُرجَعون ﴾ [2]

وقد طفحت السنة الشريفة بالروايات التي تصبّ في هذا المنحى من الحثّ والترغيب بالقروض لذوي الحاجة ، خالصةً لِلّه تعالى ، منها : [3]

ما رويَ عن النبي (ص) انه قال : « مَنْ أقرض مؤمناً قرضاً ينظر

---

(١) البقرة / ٢٧١ .

(٢) البقرة / ٢٤٥ .

(٣) راجع في هذه الروايات كتاب وسائل الشيعة للشيخ الحر العاملي ١٣ / ٨٧ وما بعدها . وجواهر الآثار والأخبار المطبوع بهامش البحر الزخار لابن المرتضى ٤ / ٣٩١ وما بعدها . وفتح الباري بشرح صحيح البخاري / ٤ / ٢٦١ وما بعدها .

بـه ميسـورة كـان مـالُـه في زكـاة ، وكـان هـو في صـلاة من الملائكـة حتى يؤ دّيه . . » .

وما روي عنه (ص) انه قال « مَنْ أنـظر معسراً أو وضـع له أظلّه الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » .

ومنها ما روي عنـه (ص) « ومن اقرض اخـاه المسلم ، كان لـه بكل درهم أقـرضه ، وزن جبـل أُحُد من جبـال رضوى وطـور سينـاء حسنـات ، وإن رَفق بـه في طلبه جـاز به عـلى الصراط كـالبـرق الخـاطف الـلامـع بغـير حساب ولا عذاب، ومَنْ شكـا إليـه اخـوه المسلم فلم يقـرضـه حـرَّم الله عـز وجل عليه الجنة يوم يجزي المحسنين . . »

منطلق الاسلام في التحريم

ولا إشكـال في أن الاسـلام لا يمكن أن يحـرّم شيئـاً ، إلا ويكـون فيـه مفسدة أو مفاسد ملزمة للإنسان .

كـما انه لا يمكن أن يـوجب أمراً إلا وتكـون فيـه مصلحـة أو مصـالـح كذلك .

وهـذا معنى قول العلماء : إن الأحكـام تابعـة للمصالـح والمفـاسـد في متعلقاتها ..

وهنـا ، لا بـد من أن نتسـاءل : مـا هـو منـطلق الاسـلام في هـذا التحريـم الجازم للربا بكلا قسميه . . . ؟

وبـاختصار ، يمكن القـول في مقام الجـواب : بأن منـطلق الاسلام في ذلك ، هو مدى ما يتسبب به الربـا للمجتمع والفـرد ، من اضرار فـادحة ، وما يؤدي اليه من ويلات .

وهـذه الويـلات ، وتلك الأضرار ، يمكن تنـاولها بـإيجاز غـير مخـلّ من جانبين :

جانب إنساني . وجانب اقتصادي .

١ ـ الجانب الإنساني

واذا اردنـا أن نبحث الأضرار الفـادحة للربـا ، في جانبهـا الانسـاني ، وجـدنـا أن فيها مـا قد يصيب الاشخـاص بشروره ، ومنهـا ما قـد تتأثـر به الدول .

أ ـ على صعيد الأشخاص :

أولاً : ان الربا ، غالباً ما يكون سبباً جوهـرياً للتبـاغض والتباعـد ، بـين الدائن والمـدين ، إذ إن المدين يشعـر باستمـرار ، أن هذا المرابي يريد أن يستغل فقره وحاجتـه ، ليشبع طمعـه وجشعه ، على حساب شقـائه وتعـاسته ، وذلـك ما يكـون سبباً في قلقـه وعذابه .

ثانياً : الـربا ، يؤدي الى اختـلال في ميزانيـة الإنسان المـدين ، حيث يجب عليه اتجاه الدائن دفع قسط من الدين كل شهـر مثلاً مـع فـائدتـه ، علماً بأن الـذي دفعه الى الاقتـراض في الأساس هـو حاجته وعدم كفايـة ايراده لتغـطية مصـارفاتـه ، ،ومعنى ذلك ، اضـطراره لخفض نفقـاتـه الاسـاسيـة التي لم تكن بـالمستـوى المطلوب في الأصل ، لتوفير مـا سوف يغـطي به سنـد الدّين ، ويترتب على ذلك انحطاط مستوى المعيشة للمدين وعائلتـه مع ما قد ينشأ عنه من امراض اجتماعية وجسدية .

ثالثاً : الربا ، أساس لإنهاك قوى المدين العقلية والجسدية ، بسبب شعوره بوطأة الفائدة المتراكمة عليه ، مما قد يضطره ، إما الى مضاعفة ساعات عمله ، وإما الى سلوك طرق غير شريفة كالسرقة ، والغصب ، والاعتداء ، لتغطية متطلبات المرابي من الفائدة .

ب ـ على صعيد الدول :

أولاً : ان القروض الدولية ، والتي غالباً ما تكون بفائدة ربوية عالية (١٠ ٪) ، إنما تتم عادة بين الدول المتخلفة الفقيرة ، والدول القوية الغنية .

ومن الواضح ، ان هذه القروض ، لا تقدمها الدول الغنية للدول الفقيرة بدوافع إنسانية محضة ، وإنما تقدمها تلك لهذه ، بدافع ان تكون عنصراً ضاغطا بيد القوي لتمرير ايديولوجيته ، كرأس جسر لتثبيت استعماره الفكري ، والعسكري ، والاقتصادي للدول الفقيرة ، وبالتالي القضاء على الدعائم الحضارية ، التي تقوم عليها ، وبتر الجذور التاريخية التي ترتبط بها .

ومن البداهة بمكان ، ان اقتطاع الانسان عن جذوره الحضارية ، والتاريخية ، يعد جريمة بشعة في حق الانسانية ، لأنه يؤدي إلى اختلال في شخصيته ، وضياع لوجوده مع ما يستتبعه من تقهقر في القيم ، وانحطاط في الأخلاق .

ثانياً : ان الدول المقترضة ، لكي تستطيع ان تفي ببعض التزاماتها بدفع الفوائد الربوية التصاعدية على القروض للدول

المقرضة ، تجد نفسها مضطرةً باستمرار ، الى فرض ضرائب جديدة على افراد الشعب ، وفي هذا ما فيه ، من تعاسة الانسان وزيادة تخلّفه المادي والحضاري ، مضافاً الى شعوره بالقهر والتحكّم ، مما قد يؤدي الى انفجارات شعبية تقمع ـ احياناً كثيرة ـ بالحديد والنار .

٢ ـ الجانب الاقتصادي

أولاً : لقد قلنا ونحن بصدد بيان بعض أضرار التعامل الربوي على صعيد انساني ، ان المدين سوف يجد نفسه مضطراً ، تحت وطأة مطالبة المرابي له بالأقساط مع فوائدها ، الى مضاعفة ساعات عمله ، لسد العجز الناشىء عن تلك الفائدة .

ومضاعفة ساعات عمله ، سوف يؤدي به الى الإنهاك الجسدي والعقلي ، ومع هذا الانهاك سوف يترتب أمران :

الأول : عدم اتقان العمل ، الذي قد يؤدي الى إفساد السلعة التي يقوم بصنعها ، مما قد يجر الى كسادها ، وبالتالي انهيار السوق الاقتصادية .

الثاني : قد يؤدي الانهاك الجسدي والعقلي ، الى ملل ، وعدم رغبة في العمل ، مما سوف يحمّل ربَّ العمل أجرة من دون ان يقابلها انتاج ، وهذا قد يؤدي به ، عند اتساع دائرته ، الى افلاس المعمل كلية ، أو إلى فصله من العمل ، وصيرورته لذلك عالة خطيرة على المجتمع ، مع ما

يستتبعه من انتشار البطالة والعطالة .

ثانياً : غالباً ما نرى المرابي ، يعمد ليحفظ ماله من الضياع ، الى ارتهان شيء مما قد يملكه المدين ، من عقار أو غيره ، وقد لا يستطيع المدين سداد الدين ، وتتراكم الفوائد التصاعدية عليه ، مما يدفع المرابي عادة ، الى الاستيلاء على ذلك الشيء المرتهن عليه ، وغالباً ما يكون ثمنه اضغاف ذلك الدين .

وفي هذا ما فيه ، من تسبيب تكدس الثروة في أيدي قلة من الناس ، مع حرمان البقية منها ، من دون أن تبذل تلك القلة اي جهد في سبيلها ، أو تتحمل أية خسارة . وما يستتبع هذا من طبقة الرأسماليين والإقطاعيين في المجتمع .

وإلى هذه الحقيقة ، أشار الدكتور شاخت ، مدير بنك الرايخ الألماني سابقاً ، في محاضرة القاها بدمشق ، عام **١٩٥٣** ، حيث قال : « انه بعملية رياضية ، يتضح ان جميع المال في الأرض ، صائر الى عدد قليل جداً من المرابين . ذلك ان الدائن المرابي يربح دائماً في كل عملية ، بينما المدين معرّض للربح والخسارة ، ومن ثم ، فإن المال كله في النهاية بالحساب الرياضي ، لا بد وان يصير الى الذي يربح دائماً . . »

ثالثاً : اذا كان الدين بين بعض الشركات المنتجة لسلعة او سلع معينة ، وبين شخص مرابي ، أو مؤسسة تقرض بفائدة ، فإن الخطر المذكور آنفاً يصبح اكثر وضوحاً .

ان هذه الشركة المنتجة ، عندما لا تستطيع ان تفي بالتزاماتها اتجاه دائنها ، وتتراكم الفوائد الربوية عليها ، ماذا تصنع ؟

ليس أمامها إلا احدى طريقتين :

فإما ان تعلن إفلاسها ، وبذلك يضع الدائن المرابي يده على منشآتها وبضائعها وزبائنها فيضاف بذلك الى الاحتكار البشع في المجتمع عنصر جديد ويُرفد بدم جديد .

وإما ان تحاول الوفاء بالتزاماتها اتجاه المرابي ولكن مع جعل زيادة على أسعار بضائعها رقما يؤدي ـ إضافة الى الظلم الذي سوف يلحق بالمستهلك ـ الى خفض في مبيعاتها ، فتقع في نفس العجز الذي حاولت الفرار منه .

وإما الى التلاعب بنوعية البضاعة ، فتنتج السلعة الأردأ ، وهذا ما سوف يدفع بالمستهلكين أيضاً ، الى الامتناع عن شراء تلك السلع ، فتقع في الإفلاس ، وهذا ما سوف ينعكس سلباً على اقتصاد البلد بشكل عام .

من اجل كل ذلك ، من اجل تجنيب المجتمع الانساني ، كل هذه الاخطار والمآسي ، حرم الاسلام الربا أخذاً وعطاء ، ذلك التحريم الجازم كما رأينا ، وجعله ظلماً ، وجعله موجباً لفساد الأموال . ولعله الى هذه الحقيقة ، يشير بصورة مبسّطة الإمام الرضا (ع) بقوله :

« إذا اشترى الانسان الدرهم بالدرهمين ، كان ثمن الدرهم درهماً ، وثمن الآخر باطلاً » .

* * *

٢ ـ الغَبن

الغَبن :مصدر غَبَن يغبُنُ ، لنقص في البيع والشراء ، فهو غابن ، وذاك مغبون .

وقد فسَّر بعض اللغويين الغَبْن بأنه الخديعة في البيع والشراء .

او : غبن الشيء وفي الشيء نسيه أو أغفله ، أو غلط فيه .

وفسَّر الراغب الاصفهاني الغَبْن ، بأن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء. وبهذا المعنى الأخير للغَبن ، يمكن ان نبحث تحته أمرين :

مسألة البخس في المكاييل والموازين .

ومسألة الأسعار المجحفة .

أ ـ الغبن

والغبن في اصطلاح الفقهاء ، هو البيع بأكثر من القيمة السوقية ، او الشراء بأقل من القيمة السوقية ، بشرط ان يتوفر أمران :

الأول : جهل المشتري في الحالة الأولى والبائع في الحالة الثانية ، بالقيمة السوقية الحقيقية للسلعة .

الثاني : ان تكون الزيادة او النقيصة فاحشة مما لا يتغابن فيه الناس عادة .

ويتضح من خلال هذا المعنى الاصطلاحي للغبن انه نوع من الاستغلال من احد طرفي المعاملة لجهل الطرف الآخر ، وفي هذا ما فيه ، من إثراء غير مشروع ، وتلاعب بسوق المسلمين بشكل يكشف عن انحطاط اخلاقي لدى الشخص الذي يمارس مثل هذا النوع من التلاعب .

موقف الاسلام من ذلك

١ ـ على الصعيد التكليفي :

وحرصاً من قِبَل الاسلام ، على نظافة التعامل التجاري ، وحمايته من كل ألوان الاستغلال المؤدي الى الفوضى في اسواق المسلمين ، وتربية منه للتجار على المسلكية المستقيمة ، في بيعهم وشرائهم ، وانسجاماً منه مع مبدأ الرعاية والتكافل المتبادل في المجتمع الاسلامي ، من كل بحسب موقعه ، نجد هذا الدين العظيم قد حرَّم الغبن تحريماً مطلقاً جازماً ونهى عن انتهاز الفرص للكسب غير المشروع باستغلال جهل كل من البائع والمشتري لنيل ربح غير مبرَّر تجارياً . ولما فيه من الضرر المالي على المسلم .

فقد وردت روايات كثيرة في السنة الشريفة تنص على هذا التحريم بشكل لا يحتمل تأويلاً . منها[١]

---

(١) جواهر الاخبار والآثار المطبوع بهامش البحر الزخار لابن المرتضى ٤ / ٣٥٤ .
ووسائل الشيعة للحر العاملي / ١٢ / كتاب التجارة ـ أبواب آداب التجارة .

مـا ورد عن النبي (ص) : « لا ضـرر ولا ضـرار » ومنهـا : مـا روي عن الإمـام ابي عبـد الله جعفـر بن محمـد الصـادق (ع) « غَبْنُ المُسْتَـرسِـل سُحْت » وفي بعض الروايات : ربـا ـ ومعنى السحت « الحرام ، او مـا خبُث وقبـح من المكاسب فلزم عنـه العـار ، كثمن الكلب والخنـزيـر والـرشـوة من سَحَتَه إذا استأصله لأنه مسحوت البركة » .

ومنها : ما روي عن الصادق (ع) في رواية طـويلة : « عليك بصـدق اللسـان في حديثـك ، ولا تغبن المُسْتَرسِـلِ ، فإن غبنـه لا يحل ، ولا تَـرْضَ للناس الا مَا ترضى لنفسك ، وأعط الحق وخذه . . . الخ »

وقاية تشريعية

والغريب ، ان الاسلام ، زيـادة منه في الحيـطة ، كيلا تتفشى ظـاهرة الخـديعـة في البيـع والشـراء بـين المسلمـين ، دعـا طـرفي المعـاملة ، البـائـع والمشتري الى الانتباه لهـذا الصنف من التجـار ، الذين يستغلون جهـل البائـع او المشتـري بـالقيمـة الحقيقيـة للسلع في السـوق ، فـدعـاهمـا الى المـاكسـة والمفـاصلة لئلا يقعـا في هذا المحـذور ، ولذا ورد بـأن ابا حنيفـة قال لـلإمام الصادق (ع) وكان قـد رآه يماكس تـاجراً أراد ان يشتـري منه (ع) إبـلاً له عجب النـاس منـك أمس بعـرَفَـة تمـاكس ببـدنـك أشـد مكـاس ؟ فقال(ع) : « وما لِلّه من الرضا ان أغبن في مالي ؟ »[1]

وقـد ورد عنهم (ع) قـولهم « مـاكس المشتـري فـإنـه اطيب للنفس ، وإن اعطى الجزيل ، فإن المغبون في بيعه وشرائه غير محمود ولا مأجور »[2]

---

(١) راجع الباب / ٤٥ من ابواب آداب التجارة من وسائل الشيعة للحر العاملي .
(٢) نفس المصدر .

٢ ـ على صعيد الوضع

ولكي يـزهـد من تُسَـوِّل لـه نفسـه غبن المسلم ، وخـديعتـه في سعـر السلعـة التي يريـد ان يبيعهـا عليـه او يشتـريهـا منـه ، فقـد جعـل الاسـلام للطرف المغبون بائعاً كان او مشترياً حقاً ينتزع بـه من الغابن لـه الزيـادة التي استغـلّ بهـا جهله بـالسعـر السـوقي ، وهـذا الحقّ اطلق عليـه في اصـطلاح الفقهاء المسلمين : خيار الغبن[١]

فالمغبون يرجع عـلى غابنـه بهذا الخيـار ليستوفي منـه ما كـان قد اخـذه بغير حق زيادة كـانت او نقيصة « إذ لا ضـر ر ولا ضرار » في الاسلام، ومعنى ذلك ، انه لا يحلّ للغابن ان يتصـرّف بهذه الـزيادة بعـد رجوع المغبـون عليه بها ، ولا تدخل في ملكه الا اذ رضي المغبون .

ب ـ البَخْس في المكيال والميزان

وكـما حـرّم الاسـلام الخيـانـة في الاسعـار من خـلال الغبن ، حـرّم الاسلام أيضاً الخيانة ، بـالتلاعب في المـوازين والمكاييـل ، وقد ورد التهـديد الإلهي قاسياً حازماً في هذا الموضوع . قال تعالى :

﴿ ويـل للمطففـين * الذين إذا اكتـالوا عـلى الناس يستـوفون * وإذا كـالوهم او وزنـوهم يُخْسرون * ألا يـظن اولئك انهم مبعـوثون ليـوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ [٢] .

---

(١) هنـالك بعض الاحكـام والشروط التي يبحثهـا الفقهاء عـادة لهـذا الخيـار تـراجـع في الكتب الفقهية عند كلامهم على الخيارات .

(٢) المطففين / ٣ .

وقال تعالى ﴿ واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾[2]

بل جعل الله سبحانه ، التلاعب بالمكيال والميزان مقارناً ومساوياً للإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس اشياءَهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾[3].

وقد ورد في السنة الشريفة الحث على ايفاء الكيل والوزن حقهما ، وانه مما يوجب البركة والرزق[4] .

فقد روي عن امير المؤمنين علي (ع) انه مرَّ على جارية قد اشترت لحماً من قصّاب وهي تقول : زدني ، فقال له (ع) : زدْها فإنه اعظم لِلْبرَكَة .

وعن الإمام الصادق (ع) « لا يكون الوفاء حتى يميل الميزان »

ولم يكتف الاسلام بهذا التشريع ، بل طبقه عملياً في اسواق المسلمين ، حيث يروى عن علي (ع) انه كان « يغتدي كل يوم بالكوفة بكرة من القصر فيطوف في اسواق الكوفة سوقاً سوقاً ، ومعه الدرَّة على عاتقه ، وكان لها طرفان ، وتسمى السَّبيبَّة ، فيقف على أهل كل سوق فينادي : يا معشر التجار ، اتقوا الله ، فإذا سمعوا صوته ألقوا ما

---

(١) الرحمن / ٩

(٢) الانعام / ١٥٢ .

(٣) الاعراف / ٨٥ .

(٤) راجع هذه الروايات وغيرها في وسائل الشيعة للحر العاملي / ١٢ / ابواب آداب التجارة .

بـأيـديهم ، وأرْعـوا اليـه بقلوبهم ، وسمعـوا بـآذانهم ، فيقـول : قـدّمـوا الاستخـارة وتبرّكـوا بالسهـولة ، واقتـربوا من المبتـاعين ، وتـزيّنـوا بـالحلم ، وتنـاهوا عن اليمـين ، وجـانبـوا الكـذب ، وتجـافـوا عن الـظلم ، وأنصفـوا المـظلومين ، ولا تقـربوا الـربا ، وأوفـوا الكيـل والميـزان ولا تبخسـوا النـاس اشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، ثم يرجع فيقعد للناس » .

وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على مـدى حرص الحـاكم المسلم ، على تطبيق احكام الله التي استُرعِيَ عـلى حفظهـا ، ليكون لهـا أثرهـا العملي في واقع المجتمع الاسلامي .

وان من حق الدولة الاسلامية . ان تتدخل ـ عندما تـرى ذلك لازمـاً ـ لحماية المستهلك من جشع الجشعين واستغـلال المستغلين ، ولذا نـرى الامام امـير المؤمنـين عليـاً (ع) يكتب من ضمن عهـده الى واليـه مـالـك الاشـتر (رض) عندما ولّاه حاكماً على مصر آمراً له :

« وليكن البيع بيعاً سمحـاً بموازين عـدل وأسعارٍ لا تجحِفُ بـالفريقـين من البائع والمبتاع »[1]

ج ـ الأرباح الفاحشة

تحـدثنا في مبحث الغَبن ، كيف ان الاسـلام حرّم عـلى البـائـع إخفـاء السعـر الحقيقي السوقي للسلعـة عن المشتـري ، وكـذا العكس ، استغـلالاً لجهله ، في سبيـل الحصول عـلى المـال ، واعتبـار الاسـلام هـذا الفـرق بـين الثمن الحقيقي والسعر المدفوع سحتاً ، وسلب ملكية الغابن عنه .

وأمـا هنا ، فنـريـد ان نتحـدث عن جـانب آخـر من جـوانب مشكلة التـلاعب بالأسـواق ، واخذ أسبـاب الإثراء الغـير المشـروع ، عـلى حسـاب

(١) راجع عهده (ع) للأشتر النخعي في نهج البلاغة .

الطبقات الأخرى في المجتمع ، من جهة الأرباح .

ونحن ، عندما نراجع النصوص[1] الواردة في السنة الشريفة ، نجد انها تنهى عن ابتغاء الأرباح الفاحشة بحيث تصل في بعض الأحيان الى مائة من مائة بالنسبة لسعر السلعة الأساسي ، وترجمة هذا عملياً ، هي ان الاسلام أراد ان تكون السلع على اختلافها في متناول جميع ابناء الأمة ممن يحتاجون اليها ، إضافة الى ان ذلك سوف يحد من طمع التجار ، الذي يدفعهم الى الحصول على مزيد من الثروة بأية حيلة ممكنة ، ويغلق باباً واسعاً من أبواب الفوضى التجارية التي تؤثر تأثيراً مباشراً على جميع قطاعات الأمة ، فضلاً عن الدولة نفسها .

من هذه النصوص ما روي عن رسول الله (ص) قوله لرجل يوصيه ومعه سُلعة يبيعها « السماح وجه من الرّباح » .

وما يروى عن الإمام الصادق (ع) ، من انه دفع الى مولى له الف دينار ليتّجر له بها ، وعند انقضاء التجارة عاد المولى الى الإمام (ع) بألفي دينار فقال له : جُعِلت فداك ، هذا رأس المال ، وهذا الآخر ربح ، فقال (ع) : ان هذا الربح كثير . . . سبحان الله ، تحلفون على قوم مسلمين ان لا تبيعوهم الا بربح الدينار ديناراً . ثم اخذ احد الكيسين وقال : هذا رأس مالي ، ولا حاجة لنا في هذا الربح . ثم قال لمولاه : مجالدة السيوف اهون من طلب الحلال . . . »

وكما نهى الاسلام عن طلب الربح الفاحش في البيع والشراء ، نهى أيضاً عن الشراء بأقل من ثمن المِثْل بفارق فاحش استغلالاً لاضطرار صاحب السلعة الى بيعها ، او لندرة من يرغب في شرائها . وقد دلّت على

---

(١) راجع كل هذه النصوص وغيرها في كتاب وسائل الشيعة للحر العاملي ١٢ / ابواب آداب التجارة .

ذلك عدة روايات :

منها : ما ورد عن ابي عبد الله الصادق (ع) قال : « يأتي على الناس زمان عضوض ، يعضّ كل امرىءٍ ما في يده ، ويُنْسى الفضل ، وقد قال الله : ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ ثم ينبري في ذلك الزمان اقوام يبايعون المضطرين ، اولئك هم شرار الناس »

وما ورد من ان رجلاً جاء الإمام الصادق (ع) فقال له : « رأيت في منامي كأن رجلاً منحوتاً من خشب على فرس من خشب يلوّح بسيفه وأنا شاهده فزعاً مرعوباً ، فقال (ع) : انت رجل تريد اغتيال رجل في معيشته ، فاتق الله الذي خلقك ثم يميتك . فقال الرجل : أشهد انك قد اوتيت علماً واستنبطته من معدنه . ان رجلاً من جيراني عرض ضَيْعَتَه عليّ فهممت ان املكها بوكس كثير لما علمت انه ليس لها طالب غيري . . . »

بل اكثر من هذا ، فإن الحاكم الاسلامي يتدخل انطلاقاً من مبدأ رعايته للأمة ومصالح افرادها ، وقيمومته على إشاعة العدل والرفاه بين الناس ، عندما يجد ذلك ضرورياً ليحدّد الأسعار بالشكل الذي ينسجم مع مبدأ الرعاية ذاك ، وهذه القيمومة .

ولذا نجد امير المؤمنين علياً (ع) يأمر مالكاً الأشتر (رضّ) عندما ولّاه حاكماً على مصر بقوله في عهده له :

« وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع . . . »

والغريب في الأمر ، ان جمهور فقهاء اهل السنة عدا الامام مالك[1] ، حرَّموا التسعير حتى على النبي (ص) استناداً الى بعض

(١) راجع للاطلاع على ذلك والحكم له او عليه كتاب نيل الأوطار للشوكاني ٥ / ٢٤٧ وما بعدها .

الـروايات التي رووهـا عنه (ص) ، سـواء كـان ذلـك في زمن الجـاجـة الى السلع ، أو في زمن الرخاء .

وخرّجوا هذه الروايـات ـ التي لم يعلم مدى صحتهـا ـ تخريجـات فقهية تتنـافى مع منـطق الاسلام ، بـل صـريـح كثـير من الآيـات والـروايـات التي نصت على حرمة مال المسلم الا عن طيب نفس .

ولـذلك ، لن نتـوقف عند هـذا المنحى من الاستدلال الفقهي البعيـد عن عدالة الاسلام وروحه .

* * *

٣ ـ الغِشّ

ما هو الغِشّ ؟

الغش بشكل عام ، إظهار الشيء بخلاف ما هو عليه حقيقة .

وفي ما يتعلق بموضوعنا ينطبق على كل عمل من قِبَل صاحب السلعة فيها ، يوهم المشتري به ، ويخدعه ، بحيث لو لم يعمل في السَلعة ذلك العمل لما اقدم المشتري على شرائها ، او لما دفع بها السعر الذي دفعه .

كأن يخلط الحنطة الجيدة بالرديئة ، أو يجعل الجيدة فوق ويخفي تحتها الرديء ، أو يرش الخضار الذابلة بالماء لتبدو طازجة وهكذا .

وقد حرّم الاسلام هذا العمل تحريماً جازماً ، وأوجب على البائع الا يخفي اي عيب يكون في السلعة التي يبيع . وقد دلت على هذا الحكم عدة روايات[1]

منها : ما روي عن النبي (ص) انه قال لزينب العطّارة « إذا بعتِ فأحسني ولا تغشي ، فإنه اتقى لله وأبقى للمال »

---

(١) راجع وسائل الشيعة للحر العاملي / ١٢ / ابواب آداب التجارة ونيل الأوطار للشوكاني ٥ / ٢٣٩ .

ومنها : ما روي عنه (ص) : « لا يحل لأحدٍ ان يبيع شيئاً الاّ بيّن ما فيه »

ومنها : ما روي عنه (ص) « مَن غشنا فليس منا »

ومنها : ما روي عن الامام ابي الحسن الأول (ع) من انه مر بهشام بن الحكم وكان يبيع نوعاً من القماش في الظلال فقال له : « يا هشام ، إن البيع في الظلال غش والغش لا يحل » .

ومنها ما روي عن الحلبي عن الإمام الصادق (ع) قال : « سألته عن الرجل يكون عنده لونانِ من طعام واحد ، وسعرهما مختلف ، واحدهما خير من الآخر ، فيخلطهما جميعاً ثم يبيعهما بسعر واحد ؟ قال (ع) : لا يصلح له ان يفعل ذلك حتى يُبيِّنه » .

وكغيره من الموارد المتقدمة ، لم يكتف الاسلام بهذا التحريم ، بل جعل للمشتري الذي وقع في الغش ، ان يرجع على مَنْ غشَّه ، وهو بالخيار بين فسخ البيع برد المعيب ، وإمضاء البيع مع أخذه من البائع الأرش ، بأن « يقوّم المبيع صحيحاً ثم يقوّم معيباً ، وتلاحظ النسبة بينهما ، ثم ينقص من الثمن المسمى بتلك النسبة ، فإذا قوِّم صحيحاً بثمانية ومعيباً بأربعة وكان الثمن أربعة ينقص من الثمن النصف وهو اثنان وهكذا »[1]

وهنالك احكام متفرقة يبحثها الفقهاء عادة عند كلامهم على خيار العيب ، فلتراجع في مظانها .

---

(١) منهاج الصالحين للامام الخوئي ٢ / ٤٩ ـ ٥٠ .

٤ ـ الاحتكار

الإحتكـار ، مصدر احتكَـرَ ، وهـو حبس السلعـة واخفـاؤهـا انتظاراً لارتفاع قيمتها ، مع حاجة المسلمين اليها ، وعدم وجود الباذل لها .

وقـد طفحت السنة الشـريفة بـالروايـات[1] الناصَّـة عـلى تحـريم هـذا النـوع من التـلاعب بـأقـوات المسلمـين واسـواقهم . منهـا : ـ مـا روي عن رســول الله (ص) انـه قـــال « لا يحتكـر الــطعـام إلا خــاطىء » وقـولــه (ص) : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » وقوله (ص) عند عروجـه الى السـماء « اطّلعت في النار فـرأيت وادياً في جهنم يغـلي ، فقلت : يــا مـالـك لمن هذا ؟ فقال : لثلاثة : المحتكرين والمدمنين الخمر ، والقوّادين » .

ولا يخفى ما في جعل المحتكرين مع مـدمني الخمر والقـوادين في صعيد واحد بلسان الرواية من دلالـة على اثـر هؤلاء السيء في المجتمع ، من نشـر الفوضى فيه ، والإفساد ، والانحلال الخلقي .

وقـد حدّد الاسـلام مدةً ، اذا احتُبس الـطعام او السلع الاستهـلاكيـة بعد مضيّها بتحقيق الاحتكار المحرّم ، ويتـرتب على المحتكِـر كل الآثـار التي

---

(١) راجـع نيل الأوطـار للشوكـاني ٥ / ٢٤٩ وما بعـدها ووسـائل الشيعـة للحر العـامـلي ١٢ / ٣١٢ وما بعدها وفتح الباري شرح صحيح البخاري ٤ / ٢٩٠ .

رَتّبها الاسلام عليه .

وهذه المدة في الخصب ، والرخاء ، وسعة الناس أربعون يوماً ، وفي الشدة ، والضيق في احوال الناس المعيشية ثلاثة ايام فقط .

وفي هذا السياق ورد عن الإمام الصادق (ع) قوله عندما سُئِل عن الرجل المحتكِر للطعام « إن كان الطعام كثيراً يسع الناس فلا بأس به ، وإن كان الطعام قليلاً لا يسع الناس فإنه يحرم ان يحتكر ويترك الناس ليس لهم طعام » .

وما ورد عنه (ع) : « الحكرة في الخصب اربعون يوماً ، وفي الشدة ثلاثة ايام . فما زاد على الأربعين يوماً في الخصب فصاحبه ملعون وما زاد على ثلاثة ايام في العسرة فصاحبه ملعون . . . » .

وما ورد عن رسول الله (ص) : « أيُّما رجل اشترى طعاماً فكبسه اربعين صباحاً يريد به غلاء المسلمين ثم باعه فتصدَّق بثمنه ، لم يكن كفارة لما صنع »

مبدأ تدخل الدولة

والاسلام كدين عملي ، منطقي ، يعلم منزله كنظام حياة لبني الانسان ، وهو الله سبحانه ، وقد ارتضاه لهم بعد ان اكمله ، ان التشريع وحده قد لا يكفي في كثير من المجالات ، ليأخذ مجراه في حياة الناس ، ما لم تدعمه إجراءات عملية حاسمة ورادعة إذ إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، كما ورد في القول المأثور .

ولذا أقر مبدأ تدخّل الحاكم الإسلامي ، الذي بيده تطبيق التشريع على الأمة ، في هذا المورد لضمان تطبيق الحكم بحرمة الاحتكار ، وتفويت

الفـرص على اصحـاب النفوس المـريضة من ان يتحـايلوا عليه ، او يـزيغـوا عنه .

وقد حصل هذا فعلاً .

حصل في عهد رسـول الله (ص) ، من قِبَله (ص) مباشـرة . حيث نفدَ الطعام على عهده (ص) ، فأتاه المسلمون فقـالوا : يـا رسول الله ، قـد نفـد الـطعـام ولم يبقَ منـه شيء إلا عنـد فـلان . فحمـد الله واثنى عليـه ثم قال : « يا فلان، إن المسلمين ذكـروا ان الطعـام قد نفـد ، إلا شيئاً عنـدك ، فأخرجه وَبِعْه ولا تحبسه »

فهنـا نرى ، بـأن الاسلام ، في مثـل هذه الحـال ، يتـدخـل ، ليجبـر المحتكر على بيـع البضاعـة التي يكون قـد احتكرهـا . وعلى هـذا كان عمـل رسـول الله (ص) ، كما يـروي المؤرخـون ، حيث كـان يمـر بـالمحتكـرين ـ ويبدو انهم كانـوا معروفـين له بـأشخاصهم ـ فيـأمر بحكـرتهم ان تخرج الى بطون الاسواق حيث تنظر الأبصار اليها .

وحصـل هذا في عهـد علي (ع) ، عنـدما كتب الى عـامله على مصـر مالك الأشتر يقول له :

« واعلـم ـ مع ذلك ـ ان في كثـير منهم ـ اي التجار وذوي الصنـاعات ـ ضيقـاً فاحشـاً ، وشحاً قبيحـاً ، واحتكاراً للمنـافع ، وتحكـماً في البياعـات ، وذلك باب مضرة للعامـة ، وعيب على الـولاة ، فامنـع من الاحتكار ، فـإن رسـول الله (ص) منع منـه ، فمن قارف حكـرة بعد نهيـك ايّاه ، فنكِّـل به وعاقبه من غير إسراف . . . »

خاتمة المطاف

وبعـد ، فهـذا هـو مـرتـنـ الاسـلام الحنيف من المتـلاعبـين بـأقـوات

الناس ، ومقدرات الأمة ، ممن اعماهم الطمع والجشع ، فحوّلهم الى مصاصي دماء الفقراء والمستضعفين .

موقف لا غموض ولا لَبْس فيه .

ككل مواقفه ، التي ليس فيها التواء وليس فيها عَنَتٌ ، بل كلها رفق ورحمة ورأفة ودفاع عن المظلوم ، وردع للظالم ، وانتصار للحق . والحمد لله وحده .

مَسيرَةُ ٱلحجّ
علىٰ خُطَىٰ إبراهيم





﴿ وَأَذِّنْ في الناسِ بالحجّ يأْتوكَ رجالاً وعلى كل ضامِرٍ يأتينَ مِن كل فجٍّ عميق ، لِيَشْهَدوا منافعَ لهم ولِيذكُروا الله في أيامٍ معدودات ﴾

الحج / ٢٧ ـ ٢٨

الكعبة وابراهيم

لا يمكن ان يذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام ، دون ان يتبادر الى الذهن ، بيت الله الحرام ، الكعبة المشرَّفة .

والعكس أيضاً صحيح .

إذ لا يُعقل ان تُذكر الكعبة المشرّفة ، دون ان يقفز الى الذهن شبح شيخ المرسلين .

ذلك ان بينهما صلة وثيقة ، ورابطة قوية .

فإبراهيم عليه السلام ، هو الذي وضع قواعدها ، ورفع بنيانها .

يقول تعالى :

﴿ وإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البيتِ وإسماعيلُ ربّنا تقبَّل مِنا إنك أنتَ السميعُ العليم ﴾[1] .

وهو مع اسماعيل عليه السلام ، أمرهما ربهما ، أن يُهيئا الكعبة المعظمة لاستقبال ضيوف الرحمن .

---

(١) البقرة / ١٢٧ .

﴿ وعهِدْنا الى ابراهيمَ وإسماعيلَ أنْ طهِّرا بيتيَ للطَّائفينَ والعاكفينَ والرُّكعِ السجود ﴾[1] .

والحديث عن ابراهيم يطول ويطول ، لأنه يعكس جهاد النبوات على امتداد التاريخ في سبيل الله ، ضد الطاغوت وأولياء الشيطان .

ولأنه يصوِّر بعمق ، ذلك الإيمان الراسخ كالجبال ، وذلك الصبر الثابت ثبات الحق ، الخالص لِلّه ، ضد ألاعيب إبليس ، وأراجيف ذريته من الشياطين .

والذي يطَّلع على بعض مواقف ابراهيم عليه السلام ، من خلال الآيات القرآنية التي تحدّثت عنه ، يستشعر بقوة كل ذلك ، وجلّ الآيات التي ذُكِرَ فيها إبراهيم عليه السلام ، وعددها تسع وستون آية ، تشير الى سمة بارزة من سمات شخصيته الرسالية الفذّة ، وخصلة من خصاله النقية .

تلك هي سمة التوحيد الخالص في أنصع صوره ، وخصلة التسليم المطلق لرب الأرض والسماء في أروع تعبير .

التوحيد الخالص ، الذي دفعه الى ان يتمرّد على كل مواضعات بيئته الكافرة بالله ، ومواصفاتها الفاسدة والمفسدة لفطرة الإنسان خليفة الله ، ويرتبط به سبحانه ، ارتباط الذرة التائهة بمحورها :

﴿ إنا برءَاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده . . . ﴾[2] .

وتمرّده ذاك ، من خلال توحيده الخالص لله ، انسحب حتى على علاقته الرَّحِمِيةِ بعمّه ، الذي كان له فضل رعايته صغيراً ، حيث لم يُقِم

---

(١) البقرة / ١٢٥ .

(٢) الممتحنه / ٤ .

وزناً لوشيجة الدم ، التي تلاشت عنده رعاية لحق العبودية لربه .

﴿ فلما تبيَّنَ انه عدو لِلّه تبرّأ منه ﴾[1] .

وأما تسليمه المطلق لله ، فقد ادى به الى الذوبان في حب ، يرفده دوماً بطاقات كبرى ، وشحنات روحية جبارة ، يستعين بدفقها الهادر ، على دفع عجلة الدعوة المباركة . ورفع راية الرسالة الخالدة ، ما بقي الكون ، وامتد وجود الحياة والانسان فيه . فلنستمع اليه ، يقول فيما يحكيه عنه القرآن العظيم : ﴿ قال أَفَرأيتم ما كنتم تعبدونَ ، أنتم وآباؤكم الأَقْدَمُونَ ، فإنهم عدوٌ لي إلا ربَّ العالمين ، الذي خلقني فهو يَهْدين ، والذي هو يُطعِمني ويَسْقِين ، وإذا مرضت فهو يَشْفين ، والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين . . . ﴾[2] .

﴿ إني وَجَّهْتُ وجهيَ لِلَّذي فطر السماواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾[3] .

وهكذا ، وبذاك التوحيد الصافي ، وهذا التسليم المحرِّر الكريم ، كان ابراهيم محلاً مؤهلاً لتحمُّل أمانة السماء ، وتَلَقّي كلمة الله :

﴿ وإذْ ابتلى ابراهيمَ ربُّهُ بكلمات فأَتَمَّهُنَّ قال إني جاعلك للناس إماماً . قال ومِن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾[4] .

وكان ، في قمة الحرص على حفظ تلك الأمانة الإلهية ، والذبِّ عنها . وفي قمة الوعي لتلك الكلمة والالتزام بها ، والعمل على إعلائها . فنال من ربه الجائزة الكبرى ، حيث اتخذه خليلاً :

---

(١) التوبة / ١١٤ .
(٢) الشعراء / ٧٥ - ٨٢ .
(٣) الانعام / ٧٩ .
(٤) البقرة / ١٢٤ .

﴿ واتخذ اللّهُ إبراهيم خليلاً . . ﴾(١) .

وبعد جهاد مرير ، ومعاناة من طغاة عصره ، وجبابرة زمانه ، تمكن شيخ المرسلين ، من ان يشق ـ بتسديد من ربه وتأييد ـ طريق الإيمان في نفوس وعقول كثير من الخلق ، حتى اكتظّت بهم الأرض ، وكان لا بد من تمحورٍ لكل حركة من حَركات المؤمنين ، وكل نمطٍ من انماط سلوكهم ، حول امر حسّي يرونه ويلمسونه ، فكان بيت الله الحرام ، تجسيداً حياً لمثل هذا التمحور ، عيناً ، كما كان الله سبحانه ، من خلال الإيمان به وبقدرته ، ووحدانيّته ، المحورَ الغير المادي ، لكل مشاعر وأفكار ، وأحاسيس وتطلعات هؤلاء المؤمنين وتشوّفاتهم .

ومن هنا ، صدر الأمر الإلّهي ، الى خليل الله إبراهيم ، بأن ينتقل بأهله هاجر ، وولده إسماعيل ، الى وادي مكة من أرض الحجاز ، تمهيداً للقرار الإلّهي الكبير ، بأن تصبح هذه البقعة المنسية في عالم الزمان ، القفر الموحشة الخشنة في عالم المكان ، مهوى الأفئدة ، ومهبط الرحمة ، ومنبع الخيرات والبركات ، وحلبة الصراع الحقيقي ، بين قوى الخير ، وقوة الشر ، المتمثلة برأس الغواية إبليس .

وامتثل ابراهيم بكل خضوع وخشوع ، ذلك الأمر ، بعد ان تقبَّلَه بكل رضى وتسليم ، وبث ربَّه كل ذلك بأسلوب عذبٍ شفّاف :

﴿ ربنا ، إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرّم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدةً من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون * رَبَّنا إنك تعلم ما نخفي وَمَا نُعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾(٢) .

---

(١) النساء / ١٢٥ .

(٢) ابراهيم / ٣٧ ـ ٣٨ .

واستجاب ربُّ العزة لإبراهيم ، فأمره ان يبني الكعبة ، بيته الحرام ، ليكون مدخلاً الى تحقيق ما دعاه به نبيّه ، فامتثل :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل ربَّنا تقبَّل منا إنك انت السميع العليم ﴾[1] .

وتفيد هذه الآية الكريمة ، ان أسس بيت الله الحرام ، كانت ما زالت قائمة بعد الطوفان ، فأمِرَ إبراهيم برفعِها وإعلائِها . كما يُفْهم من قوله تعالى في مكان آخر في كتابه :

﴿ إن اول بيت وُضِعَ للناس لَلَّذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين ﴾[2]

ان الكعبة المشرَّفة ، إنما وُضِعَت للناس ، وبمقتضى بناء الفعل « وُضِع » للمجهول ، ان الواضع لها من غيرَ الناس ، ألا وهو الله سبحانه وتعالى ، وأنه ليس أول بيت ينتسب الى الله على هذه الأرض .

ويؤيد هذا المعنى الأخير ، ما ورد عن علي (ع) عندما سُئِل « أذلك أول بيت لله ؟ فقال (ع) : لا قد كان قبله بيوت ، ولكنه أول بيت وُضِع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة . . . الخ »[3] .

وما ان اشرفت عملية بناء البيت على نهايتها ، حتى جاء الأمر الإلٓهي التالي :

﴿ وإذْ بوَّأنا لإبراهيم مكانَ البيتِ أنْ لا تُشرك بي شيئاً وطهِّر بيتي للطائفين والقائمين والرُّكَّع السجود . . . ﴾[4]

---

(١) البقرة / ١٢٧ .

(٢) آل عمران / ٩٦ .

(٣) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري ١ / ١٢٨ والتفسير الكبير للرازي ٨ / ١٤٥ .

(٤) الحج / ٢٦ .

ومـا ان تم امتثال هـذا الأمـر الإلّهي ، حتى جـاء الأمر الـربّـاني معلنـاً القـرار السماوي الكبـير ، دعوة الحجيـج الى بيت الله الحرام ، يتعلمـون من إبراهيم مناسك حجّهم :

﴿ وأذِّن في الناس بالحج يأتوكَ رجالاً وعـلى كل ضـامرٍ يـأتين من كـل فجٍّ عميق .. ﴾[1] .

وهكـذا ابتدأت عبـادة الحج بحـركة إبـراهيم ، ثم لتستمر بـاستمـرار حلقـات سلسلة الأنبيـاء بعـده . حيث طُلبَ من كـل نبي ان يتّبـع ملّتـه ، لأنها الفـطرة السليمة النقيـة ، الى ان وصل النـداء الإلّهي الى خـاتم النبيّـينَ محمد (ص) ، بدعاء إبراهيم ، الذي رفعه الى ربّه فاستجاب له :

﴿ ربَّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آيـاتِكَ ويُعلِّمِهُمُ الكتـابَ والحكمة ويزكّيهم إنـك انت العزيـز الحكيم ، ومَنْ يَرْغب عن مِلّةِ إبـراهيم إلّا من سَفِـهَ نفسَه ولقـد اصـطفينـاه في الـدنيـا وإنـه في الآخـرة لمن الصالحين ﴾[2] .

محمد امتداد لإبراهيم

وهكـذا ، كـانت دعـوة ابـراهيم ، دعـوة رسـول الله محمـد (ص) ، وكانت امة خـاتم النبيينَ امتـداداً لإبراهيم ، ومصـداقاً لـلاسم الذي اختـاره باختيار الله للبشرية العابدة في الأرض :

﴿ يَا أَيُّهَا الـذينَ آمَنُوا اِركَعُـوا واْسْجُدُوا واعْبُـدوا ربَّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحـون وجاهـدوا في الله حق جهاده هـو اجتباكم ومـا جعَلَ عليكم

---

(١) الحج / ٢٧ .

(٢) البقرة / ١٢٩ ـ ١٣٠ .

في الـدين مِن حَرَج ملةَ أبيكم إبـراهيم هو سمّـاكم المسلمـين من قبْـل وفي هـذا ليكونَ الـرسـول عليكم شهيـداً وتكـونـوا شهـداءَ عـلى النـاس . . ﴾ الآية[1] .

تحريف وانحراف

ولكن هذا الجهاد العـظيم الذي قـام به شيـخ المرسلين ، إن في أرض كنعـان ، أو مصر ، أو الحجـاز ، حيث كان قـد هاجـر من اجل نشـر دعـوة الله بـين النـاس . وهــذه المشَــاقُّ التي تحمَّلهـا في سبيـل ذلـك . وتلك التضحيـات التي قدّمهـا بين يـدي هذا الهـدف السامي ، بَـدَتْ كلها ، بعـد حِقَبٍ من الـزمان ، وكـأنها رؤى غائمـة تمـر في الـذهن ، فـلا تستقـر ، ولا تثبتٌ ، ولا تؤثّر . !؟

وهذا امر ، يبدو عند استعراض تاريخ الرسـل والرسـالات ، انه سُنَّـةُ من السُّنَنِ التاريخية ، التي حكمَتْ مسيـرة الأمم والشعوب عبـر الأجيال ، إذ غالباً ما رأيناها تنحرفُ عن هَـدْيِ السماء ، وخط الانبيـاء ، بعد فتـرة تطول او تقصر من انتقال نبيِّها أو رسولها الى ربه .

بـل نـرى مثـل هـذا الانحـراف قـد ذرّ قـرنيـه بـين ظهـراني قـوم من الأقــوام ، حتى مــع وجــود نبيِّهم فيهم وبينهم ، ولكن تكــون مقتضيــات رسالته ، قـد استدعت تركه لهم حتى حين ، كما جرى لقـوم موسى بعـد ان ذهبَ لميقات ربه ، حيث اتخذوا العجل وهم ظالمون .

بل ما جرى لهم وعليهم ، وهو بين ظهرانيهم ، وحاضر معهم :

﴿ فأتَوا عـلى قوم يعكُفُـونَ على أصنـام لهم قالـوا يا مـوسى اجعل لنـا

---

(١) الحج / ٧٧ ـ ٧٨ .

إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون . . ﴾[1] .

ولا ملازمة ، على ما يبدو ، بين القِيَم المادية والقِيَم الروحية والأخلاقية لأية أمة ، فيما يتعلق بهذه السُّنَةِ التاريخية .

بل يمكن القول ، بأن تاريخ الأمم على اختلافها ، يَرْسم باستمرار ، خطين اثنين :

احدهما صاعد ، وهو خط القيم المادية بشكل عام .

والآخر هابط ، وهو خط القيم الروحية والأخلاقية .

ولعله الى هذه السُّنَّة التاريخية في حياة الأمم ، يشير قوله تعالى :

﴿ فَخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتَّبَعوا الشهوات فسوف يلقَوْنَ غيّاً . . ﴾[2] .

وهذا هو ما حصل عيناً ، بالنسبة للبشرية في فترة ما بعد إبراهيم (ع) . حيث نجدها وقد انحرفت عن طريق الله ، وتنكّرت لمباديء السماء ، ونسيت في زحمة الحياة وانغماسها في حمأتها ، وصيةَ إبراهيم . وكذلك وصية ابنائه للأجيال من بعدهم . . .

﴿ إذ قال له ربُّهُ أسْلِمْ ، قال أسْلمتُ لربِّ العالمين ، ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وانتم مسلمون ، ام كنتم شهداءَ إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهكَ وإله آبائِك إبراهيم واسماعيل وإسْحقَ إلهاً واحداً ونحن له مسلمون . . ﴾[3] .

---

(1) الأعراف / ١٣٨ .
(2) مريم / ٥٩ .
(3) البقرة / ١٣١ ـ ١٣٣ .

وقد كانت يد السماء الحانية ، تمتد عند كل انحراف يتخذ سِمَتَي الشمول والاستيعاب ، لتقوِّم هذا الانحراف ، ولتُعيدَ البشرية الى الصراط المستقيم ، صراطِ الله ، من خلال رسالة ورسول ، أو نبوة ونبي ، فكان موسى ، حيث انحرفت البشرية من بعده ، فكان عيسى .

والذي يبدو واضحاً جليّاً في تاريخ هذه الحِقْبة بعد إبراهيم خليل الرحمن ، أنَّ سنّة الانحراف عن خط السماء ، وتنكّرِ البشرية لعالَمَ القِيَم الروحية الصحيحة ، والأخلاقية الرسالية ، وإسفافِها فيما يتعلق بعالَم القيم هذا ، إنما كان المحرّكُ الأكبرُ له ، والمحرِّض الأعظم عليه ، هو الدور الخطير والحقير ، الذي لعِبَه الأحبار والرهبان ، ممن كان من المفروض فيهم ، انهم أُمَناءُ على سلامة مسيرة الرسالات في كل دور من أدوار البشرية ، وقائمون على حُسْنِ تطبيقها كما أنزلها الله سبحانه . حيث وجدنا هؤلاء في مجملهم ، قد خانوا الأمانة ، بتحريفهم للمبادىء السماوية السامية ، التي جهد أنبياءُ الله ورسلُه ، على إيصالها الى الناس كما أراد الله ، نقيةً صافية ، وتحويلهم هذه المبادىء الى طقوس جامدة متحجِّرة تتوافق مع مصالحهم ، ومراكزهم ، وتساعد على تثبيت دعائم سلطانهم ، وتَسَلُّطِهِمْ على رقاب عباد الله ، وبالتالي ، إتخاذهم من دين الله وسيلةً الى تَرَفِ دنياهم هم ، ولو على حساب كرامة هذا المخلوق ، ودموعه ، ودمائه ، وتعاسته . . . !؟

وهكذا ، تحوّلت رسالة السماء ، من كونها صيحةَ انطلاق وتحرّرٍ وانعتاق للإنسانية من قيود الأرض وضرورات الحياة ، وتحليق نحو الأعالي ، حيث عالم القيم الإلَهية ، تحولَت ـ بفعل هذا التحريف والتزوير ـ الى قيود ثقيلة قاسية ، تَحولُ دون انطلاق الإنسان ، بل تكرِّس عبوديته للطغاة والظالمين ، من خارج ، ولغرائزه وشهواته ، وميوله الحيوانية من داخل ، حتى غدا بالتالي ، كومةَ عبوديات تسعى على قدمين . . . ؟!

كما تحوّل هؤلاء الأحبار والرهبان ـ نتيجة هذا التحريف والتزوير

أيضـاً ـ الى أربـاب عـلى الأرض ينـطقـون ـ افتـراء ـ بـاسم رب الأرض والسماء ، وراحوا ، لكي لا تُهدَّدَ امتيازاتهم ومكـاسبهم ومراكـزهم ، يحرِّمـون حـلال الله ، ويُحلِّلون حـرامـه ، وبـذلـك حـرِّفت شـريعـة الله ، وطُمِسَت معـالمهـا ، بعـد ان اخفى هؤلاء التجـار المستهتـرون ، الكتبَ السمـاويـة الحقيقيـة التي أنزلهـا الله عـلى رُسُله ، كصُحُفِ إبـراهيم ، ومـزامـير داود ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، واستبدلوها بكُتُب مـوضوعـة من عنديـاتهم وُفْقَ اهوائهم ورغباتهم .

نُورٌ وَسَطَ دَيْجُور

وهكـذا ، ووسط هذا الـركـام الضـاغط ، بُعِث رسـولُ الله ، وخـاتمُ النبيّـين محمـد (ص) ، والإنسـانيـة تعيش كـل هـذا الانحـراف عن الله ، وشـريعته ، وأحكـامه ، وتـرتكس في ظلمـات جـاهليـة رعنـاء ، وحيـوانيّـة مسفّة .

ووجـد رسـول الله (ص) ، البيت الحـرام ، الـذي جعله الله مثـابـة للنـاس ، والذي أقـامه أبـو الأنبياء إبـراهيم ، على أسس التـوحيد الخـالص لِلّه ، والتسليم المطلق له ، وقد تحوّل الى بيت لـلأصنام ، فـوقَه ، وداخلَه ، وحوالَيْه ، فهنا هُبَل ، وهناك اللاتُ والعزَّى ، وهنالـك مَنَاة ، وألفىٰ النـاس يسجدون لها ، ويُقَـدِّمون الأضـاحي والقرابـين ، وسط بخور يُصَعِّـدُ دخانَـه بـاستمرار الكهنـةُ من الأحبـار والـرهبـان ، الـذين كـانـوا يفتـرون عـلى الله الكذب ، ويشترون بآياته ثمناً قليلاً .

وتحـوّلت عبادة الحـج الى هذا البيت المعـظّم ، بما تستبـطنه من معـاني الخير ، الى تجمّع غرائزي حيواني ، يسوقه المجون والشهـوة ، ويحدوه الغـرور والفجـور ، وافراده يـطوفون حـول أول بيت وُضِـع للنـاس مبـاركـاً وهـدىً

للعـالمين ، عـراةً نسـاءً ورجـالاً ، يُصفّقونَ ويُصَفِّـرون ﴿ **وما كـان صَـلاَتُهم عند البيت إلا مُكاءً وتصديةً** ﴾[1] .

وهم ، مـع ذلـك ، يَتَبجَّحـونَ ويتشَـدَّقـونَ ، بـأنهم أوليـاءُ البيت الحـرام ، وأحبَّاءُ الله ، سـوف يغفـر لهم ، ويتجـاوز عنهم ، ولن يعـذِّبهم ، فـردَّ الله مقالتهم : ﴿ **قـل إن كانت لكم الـدار الآخرة عنـد الله خالصـةً من دون النـاس فَتَمَنَّوا المـوت إن كنتم صـادقـين وَلَـنْ يَتمنَّـوهُ أبـداً بمـا قـدَّمت أيديهم والله عليم بالظالمين** ﴾[2]

﴿ **وما لهم ألاّ يُعذِبَهم الله وهم يصدُّون عن المسجد الحـرام وما كـانوا اولياءه إنْ اولياؤه إلاّ المتَّقون ولكنَّ اكثرَهُم لا يعلمون** ﴾[3]

نعم ، تركة ثقيلة من الانحـراف عن رسالـة الله التي حملها إبـراهيم ، وكل الأنبياء الى الناس ، وكُفْرٍ بالمرسِلِ والرُّسُل .

هذه التركة الثقيلة ، بُعِثَ رسول الله (ص) ليجـدَها تسـتوطن قلوب قومِه وعقولَهم ، قومِـه من قريش ، وبـالتالي ، عقـول وقلوب سكان الجـزيرة العربية آنذاك .

ولقـد كان عليـه كنبي ، بعدمـا أرسل الى النـاس كافـةً بشيراً ونـذيـراً ورحمة ، ان يواجه كلَّ تلك التركة ، وكل هذا العناد والكفر .

وكان عليه (ص) ، اثنـاء تلك المواجهـة القاسيـة ، ان يكشفَ زيفَ الـدعـاوى التي يُطلقهـا اولئـك الأحبـار والـرهبـان ، مِمّن بـاعـوا أنفسَهم للشيـطان ، ليُسقط تلك الهـالـة من القـداسـة ، التي غلَّفـوا انفسَهم بهـا ،

---

(١) الأنفال / ٣٥ .

(٢) البقرة / ٩٤ ـ ٩٥ .

(٣) الأنفال / ٣٤ .

وتعبَّـدوا الناس من خـلالها ، حيث تحـوّلوا الى أربـاب عـلى الأرض من دون الله . . .

﴿ اتخـذوا أحبارهـم ورهبـانهم أربابـاً من دون الله ، والمسيحَ بن مـريم وما أُمِروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يُشرِكون ﴾(١) .

وأَخْفَـوا الحق الذي جـاءبه الأنبيـاء ، وحرّفـوا الكتب السماويـة ، بمـا يتوافق مع أهدافهم وأهوائِهم ، فنزل القرآن يفضحهُم :

﴿ ومنهم أُمِّيُـونَ لا يعلمـون الكتـاب إلاّ أمـانيّ وإن هم إلا يـظنـون فويل للذين يكتبـون الكتاب بـأيديهم ثم يقـولون هـذا من عند الله ليشتـروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾(٢)

﴿ وإنَّ منهم لفـريقاً يَلْوُونَ ألسِنتَهم بـالكتـاب لِتحسَبـوه من الكتـاب وما هو من الكتاب ويقولـون هو من عنـد الله وما هـو من عند الله ويقـولون على الله الكذب وهم يعلمون . . ﴾(٣) .

وكذبوا على الله ، عندما ادَّعَوا بـأن إبراهيم وغيـره من الأنبياء ، كـانوا إمّـا هـوداً أو نصـارى ، ليتـوَصَّلوا الى تثبيت نتيجـة كـاذبـة ، هي انهم أولىٰ النـاس بـإبـراهيم وكـلِ هؤلاء الأنبيـاء ، فنـزل القـرآن يُسَفِّـهِ دعـواهم ، ويـدحضهـا : **﴿ أمْ تقـولـون إن ابـراهيم وإسمـاعيـل وإسْحٰق ويعقـوبَ والأسباط كـانـوا هـوداً او نصـارى ، قـل أأنتم أعلمُ أم الله ومَنْ أظلم ممن كَتَمَ شهادةً عنده من الله وما الله بغافلٍ عما تعملون ﴾**(٤)

﴿ مـا كان إبـراهيم يهوديـاً ولا نصرانيـاً ولكن كـان حنيفـاً مسلماً ومـا

---

(١) التوبة / ٣١ .
(٢) البقرة / ٧٩ .
(٣) آل عمران / ٧٨ .
(٤) البقرة / ١٤٠ .

كان من المشركين إن أَوْلىٰ الناس بـإبراهيم لَلَّذين اتبعـوه وهذا النبي والـذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين . . ﴾[1] .

وادَّعوا بأن الجنـة وقفٌ على مَنْ كـان مِنْ أتباعهم ، وطـوّبوهـا يبيعونها لِمَنْ شاءوا ، ويمنعونها عمَّنْ شـاءوا ، فنزل القـرآن يكذّبهم : ﴿ وقـالوا : لن يدخلَ الجنـة إلا مَنْ كان هـوداً أو نصارى تلك أمـانيُّهم قل هـاتوا بـرهانكم إن كنتم صادقين . . ﴾[2] .

ولـمّح ، الى ان ما يكشف زيفَ دعـواهم تلك ، هو اختـلافهم هم على بـاطلهم : ﴿ وقـالت اليهـود ليست النصـارى عـلى شيء وقـالت النصـارى ليست اليهود على شيء ﴾[3] .

﴿ وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا قُلْ بَـلْ ملةَ إبراهيم حنيفـاً وما كان من المشركين ﴾[4] .

وادَّعـوا ، بـأنهم هم وحـدهم العلماء بـالكتب السمـاويـة ، وغيـرهم جهّـال أمِّيـون ، فنـزل القـرآن ينـدِّد بهم ، ويبـيّن جهلهم المـركَّب في هـذه النقـطة : ﴿ مَثَـلُ الـذين حُمِّلوا التـوارة ثم لم يحملوهـا كَمَثَـل الحمـار يحمـلُ أسفـاراً بئس مَثَـلُ القـوم الـذين كــذَّبـوا بـآيـات الله والله لا يهــدي القـوم الظالمين ﴾[5] .

وهكذا ، استمرت المعركة الفكرية والعقائديـة محتدمـةً بين رسـول الله

---

(١) آل عمران / ٦٧ .
(٢) البقرة / ١١١ .
(٣) البقرة / ١١٣ .
(٤) البقرة / ١٣٥ .
(٥) الجمعة / ٥ .

(ص) والقلة من المسلمين معه ، من جهـة ، وبين المشـركين وأهـل الكتاب من جهـة اخرى ، طيلة ثـلاثة عشـر عـامـاً متـواصلة في مكـة . تحمَّـل فيهـا المسلمون ، بقيادة النبي (ص) كـل صنوف الأذى والعـدوان ، حتى أذن الله لنبيّه بالهجرة الى يثرب ، ليقيم دعائمَ أول مجتمع إلٓهي هناك .

وطيلة هـذه الفترة ، كـان التشريـع قد تمَّ من قِبَـلِ الله سبحانـه ، في كثير من امور العبادات ، والمعاملات ، والسلوك ، وبلَّغه رسـوله الكـريم الى المسلمين ، حسبَ سُنَّةِ التدرُّج .

وكـانت العبادة الكبـرى ، التي تتم فصولهـا حـول الكعبـة المشـرَّفـة ، وباقي مناطق ام القـرى ، في منى ، وعرفـة ، والمشعر الحـرام ، وُفق شريعـة إبـراهيم ، سـاريـة المفعـول في الإسـلام ، عـلى يَـدَيْ رسـول الله (ص) ، ولكنها كانت ـ كما سبق وذكرنا ـ كغيرها من جوانب شـريعة شيـخ المرسلين ، قد حرِّفت معالمها ، وعـطِّلت حدودهـا ، وشُوِّهَت صـورتها ، عـلى يد محـرِّفي رسالات السماء وقتلةِ الأنبياء .

وكـان على خـاتم النبيّـين ، ان يعيـدهـا الى مـا كـانت عليـه في عهـد إبـراهيم من صفاء ونقـاء ، كما رَسَمت معـالمها السـماء ، لا كما تـلاعبت بهـا الأهواء .

ولكن ، كيف يتسنّى لـه ذلك ، وقـد اخرج من ام القـرى بغير حق ، وأبعـدَ عن مهـوى الفؤاد ، أولِ بيت وُضِـعَ للنـاس ، مبـاركـاً وهـدىً للعالمين ، ولكنه ـ وهو النبي المسَدَّد من ربه ـ ما كان ليعـدم وسيلة يكسر بهـا شـوكـة الـظلم والـطغيـان ، وينقـذ بيت الله الحـرام من رجسهم وَدَنَسِهم ، ويعيـده محـورَ عبـادة الحـج ، ومجمَـعَ العـابـدين ، والـطائفـين ، والـرُّكـعِ السجود .

انطلاقة التصحيح

ولذا[1] ، وما أنْ دَخَلَت أَشْهُرُ الحج ، وفي ذي القعدة بالذات ، من السنة السادسة للهجرة المباركة ، حتى عزم النبي (ص) ، على الخروج من المدينة ، متوجهاً الى مكة ، في عدة مئات من المسلمين ، ليؤدي العُمْرةَ لله فيها .

ولم يكن خروجه بنيَّةِ القتال والحرب ، وساق معه الهَدْيَ وأحرم للعمرة ، ليعلَمَ الناس ، ولتدرك قريش ، انه انما خرج زائراً البيت الحرام ، ومعظِّماً له . . .

حتى إذا وصل رسول الله (ص) الى عُسْفانَ ، بين الجُحْفَةِ ومكة ، لقيَه بِشْرُ بن سفيان فقال : « يا رسول الله ، هذه قريش قد سَمِعَت بقدومك ، فخرجوا معهم العُوذُ المطافيلُ ، وَقد لبسوا جلودَ النمور ، وقد نزلوا بذي طُوًى ، يعاهدون ، لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد ، في خيل قد قدَّموها الى كُراع الغميم . . . »

فقال رسول الله (ص) :

« يا وَيْحَ قريش ، قد اكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم اصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظْهرَني الله عليهم ، دخلوا في الاسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله ، لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به ، حتى يظهره

(1) راجع كل هذا في السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣٢٢ وتاريخ الطبري ٣ / ٧١ وما بعدها .

الله ، او تنفردَ هذه السَّالفة . . »[1]

ثم قال (ص) :

« مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غيرِ طريقهم التي هم بها . . ؟ »[2]

« فقال رجل مِن أَسْلَم : أنا يا رسول الله . . . »[3]

فسلك النبي (ص) ومَنْ معه ، طريقاً وعِراً بين شعاب ، فلما خرجوا منها وقد شقَّ ذلك على المسلمين . فقال رسول الله (ص) :[4]

« قولوا نستغفر الله ونتوب اليه »[4] .

فقالوا ذلك .

فقال النبي (ص) :[5]

« والله إنها لِلْحِطَّةُ التي عُرِضَت على بني اسرائيل فلم يقولوها . . »

وهكذا ، نجد رسول الله (ص) ، يتحاشى قريشاً ، في وجهته الى مكة ، لأنه إنما خرج معتمراً ، ولم يخرج محارباً . . .

وكأَنَّ الله سبحانه ، أراد ان يبينّ مدى اللجّاج في محادَّة قريش لِلّه ولرسوله ، حيث أصرّوا على مناجزة المسلمين بقيادة النبي القتال . ولم تُفِد معهم الرسلُ الذين كانوا يقابلون رسول الله (ص) فيقتنعون بأنه لا يقصد قتالاً .

فهذا بُدَيْلُ بن وَرْقَاء[6] ، وقد اتى النبي (ص) في رجال من خُزاعَة ، فكلّموه وسألوه عن الذي جاء به ، فأخبرهم انه لم يأت يريد

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) و (٥) نفس المصدر / ٣٢٣ وتاريخ الطبري ٣ / ٧١ وما بعدها .

(٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣٢٥ وتاريخ الطبري ٣ / ٧٤ .

حرباً ، وإنما جاء معتمراً ، زائراً البيت الحرام مُعَظِّماً لحرمته ، فرجعوا الى قريش فقالوا لهم : « يا معشر قريش ، إنكم تعْجَلون على محمد ، إن محمداً لم يأتِ لقتال ، وإنما جاء زائراً هذا البيت . . . » .

فاتهمتهم قريش ، وجَبَهَتْهُمْ وقالوا : « وإن كان جاء ولا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا أبداً ، ولا تُحدِّث بذلك عنّا العرب » فلما كان من رسول الله (ص) ، تأكيداً لأمر خروجه المُسالِم قاصداً مكة ، ان ارسل احد اصحابه برسالة الى قريش ، فاحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسولَ الله (ص) ان قريشاً قد قتلت الرسول ، فقال (ص) : لا نبرحُ حتى نناجز القوم .

ودعا الناس الى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة .

وقد كانت بيعة الناس له على الموت ، او على ألّا يَفِرّوا ، ثم اتى الخبر الصحيح بأن رسول النبي (ص) لم يُقْتَل .

ثم بعثت قريش سهيلَ بن عمرو ، الى رسول الله (ص) ، لكي يعقد صلحاً معه ، وأن يكون الصلح ، على أساس أن يرجع عنهم (ص) عامَهُ هذا ، دون ان يعتمر .

فعندما أقبلَ الرسول على النبي (ص) قال سلام الله عليه : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » ثم جرى الصلح ، وكُتِبَ كتاب بذلك .

عِبرةٌ وذكرى[1]

وهنا وثب عمر بن الخطّاب (رض) فقال :

---

(1) راجع هذه الحادثة وغيرها في السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣٣١ وما بعدها وتاريخ الطبري ٣ / ٧٩ .

يا أبا بكر : أَلَيْسَ برسول الله ؟

قال : بلىٰ .

قال عمر (رض) : أوَ لَيْسوا بالمشركين ؟

قال : بلىٰ

قال عمر : فعلامَ نعطي الدنيَّة في ديننا ؟!

قال ابو بكر (رض) : يا عمر ، إلزَمْ غَرْزَه ، اي الزم امره فإني أشهد انه رسول الله .

فكان عمر (رض) ـ كما يروي المؤرخون ـ يقول : ما زلت أتصدَّق ، وأصوم ، وأصلّي ، وأُعتِقْ ، مِن الذي صنعتُ يومئذٍ . . .

وعندما فرغ رسول الله (ص) ، من كتاب الصلح ، قام الى هَدْيِه فَنَحَرَه ، ثم جَلَسَ فَحَلَقَ رأسه .

فلما رأى الناس ما فعل رسول الله (ص) تواثبوا ينحرون ويحلقون .

ثم قفل رسول الله (ص) راجعاً الى المدينة . فلما كان بين مكة والمدينة ، نزلت سورة الفتح ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبينا** ﴾ الى آخر السورة . وفيها نزلت الآيات التي تتحدث عن بيعة الرضوان : ﴿ **إن الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومَنْ أوفى بما عاهد عليه، الله فسيؤتيه اجراً عظيماً** ﴾[1] وسُمّي ذلك العام ، بعام الحُدَيْبِيَة .

---

(١) الفتح / ١٠ وكذا الآيات ١٨ وما بعدها .

عمرةُ القضاء[1]

وفي السنة التالية ، سنةِ سبع للهجرة ، وفي نفس الشهر الذي صدّه المشركون عن البيت الحرام في السنة المنصرمة ، في شهر ذي القعدة ، خرج رسول الله (ص) معتمرة عمراً القضاء ، وتُسَمى عمرة القصاص ، باعتبار أنه (ص) اقتصَّ من المشركين ، لأنهم كانوا قد صدّوه عن عُمرته الأولى في الشهر الحرام ، فنزل قوله تعالى :

﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحُرُمات قصاص فَمَنِ اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين ﴾[2]

ولما سمع المشركون بقدوم رسول الله (ص) صَفّوا له عند دارِ الندوة ، لينظروا اليه وإلى اصحابه ، حيث كان قد بلَغَهم انه (ص) واصحابه في عسر وجهد وشدّة ، وقد علم رسول الله (ص) بما رَمَوْا إليه .

فلما دخل المسجد ، أدخل بعضَ ردائه تحت عَضُدِه اليمنى ، وجعلَ طرفَه تحت منكبه الأيسر ، ثم قال لأصحابه :

« رَحِمَ الله امْرَءاً أراهم اليوم من نفسه قوةً » .

ثم خرج يهروِلُ حول البيت ، وهكذا فعل أصحابُه . . .

وأقام رسول الله (ص) في مكة ثلاثة أيام ، حيث جاءَه حُوَيْطِبُ بن

---

(١) راجع كل ما يتعلق بهذا الموضوع السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ١٢ وما بعدها .
(٢) البقرة / ١٩٤ .

عبد العُزّى ، وكانت قريش قد وكلته بإخراج النبي وأصحابه من مكة ، فقال له : « لقد انقضى أجَلُك فاخرُج عنا » .

قال رسول الله (ص) :

« وما عليكم لو تركتموني وصَنَعْنا لكم طعاماً فَحَضَرْتُمُوه ؟ فقال : « لا حاجة بنا في طعامك ، فاخرج عنا »

فخرج رسول الله (ص) من مكة ، تنفيذاً للعهد الذي جرى بينه وبين المشركين العام السابق ، وقَفَلَ راجعاً الى المدينة ، في شهر ذي الحجة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **لقد صَدَقَ الله رسولَه الرؤيا بالحق ، لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ انشاء الله آمنين مُحَلِّقينَ رؤوسَكم ومُقَصِّرين لا تخافون فَعلِمَ ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** . . . ﴾[1] .

ويعني بذلك ، فتح خَيْبَر ، الذي جرى سنةَ ثمانٍ للهجرة ، وكذا فتح مكة في العام نفسه .

---

(١) الفتح / ٢٧ .

نقضُ المشركينَ لبنود الحُدَيْبِيَة وفَتحُ مكة[1]

نصَّ صلح الحُـديبِيَـة ، سنــةَ ستٍ لِلْهجـرةِ بـين رسـول الله (ص) ومشـركي قـريش عـلى أنَّ مَن أحبَّ أنْ يَـدخـل في عَقـد رسـول الله (ص) وعهدِه ، فليدخل فيه .

ومَن احب أنْ يدخل في عَقْد قريش وعهدهم فليدخل فيه .

فدخلت بنو بَكْـر في عقد قـريش وعهدهم . ودخلت خُـزاعة في عقـد رسول الله وعهده . وقد كان بين هذينِ الحَيـيَّن ثأر في الجـاهلية . فلما كـانت الهـدنة ، اغتنمهـا بنو الـدَّيلِ من بني بَكـر ، وأرادوا ان يصيبوا من خـزاعـة ثأرهم القديم ، فخرج نوفلُ بنُ معاويـة الديـلي في قبيلته ، وكـان قائـدَهم ، حتى بيَّت خـزاعة وهم عـلى ماء لهم يُـدعىٰ الوَتـير ، فأصـاب منهم رجـلاً ، واقتتلوا ، وأمـدّت قريش المعتـدين من بني بكر بـالسلاح ، وقـاتل معهم مَنْ قاتلَ من قـريش أيضاً ، مستخفيـاً بالليـل ، حتى ساقـوا خزاعـة الى الحرم ، فلما انتهَـوا إليه ، قـالت بنو بكـر : يا نـوفل ، إنـا قد دخلنـا الحـرم ، إلَهـك إلَهك .

(١) للاطلاع على كل التفاصيل المتعلقة بذلـك راجع السيـرة النبويـة لابن هشام ٤ / ٣١ وما بعدها وتاريخ الأمم والملوك للطبري ٣ / ١١٠ وما بعدها .

قال نوفل : لا إله له اليوم ، يا بني بكر أصيبوا ثأركم ، فلعمري إنكم لتَسْرقون في الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟!

وهكذا كان ، وارتكب بنو نوفل في بني بكر مجزرةً عظيمةً في الحرم ، الذي جعله الله حرماً آمناً .

وبذلك ، نَقَضَتْ قريش عهدها مع رسول الله (ص) . وجاء عمرُو بن سالم الخزاعي الى المدينة ، فوقف امام رسول الله (ص) ، وهو جالس مع الناس في المسجد ، وأخبره بنقض قريش العهد ، وما حلَّ بخزاعة من المسلمين ، وانشده ابياتاً من الشعر ، استنصر فيها النبي ، على المشركين .

فقال رسول الله (ص) : نُصِرْتَ يا عمروَ بنَ سالم .

ساعة النَّصْر

وشَعَرَ مشركو قريش بفداحة الجريمة التي ارتكبوها ، فحاولوا ان يُحْيوا عقد الهدنة والصلح مع رسول الله (ص) ، فأرسلوا أبا سفيان بنَ حرب للقيام بهذه المهمة ، فلم يُفْلِحْ .

ثم امر رسول الله (ص) الناس ، ان يتهيَّأوا للخروج الى مكة ، ثم قال :

« اللهم خذِ العيون والأخبارَ عن قريشٍ حتى نَبْغَتَها . . . »

وخرج (ص) بالمسلمين ، متوجهاً الى مكة ، لعشرٍ مَضَيْنَ من رمضان ، سنة ثمانٍ للهجرة ، وعندما وصَل جيش المسلمين الى ضواحي مكة ، القى الله في قلوب المشركين الرعب ، وأدركوا انها النهاية .

ورجع ابو سفيان الى داخل مكة ، ليُبَلِّغ بلاغ رسول الله

(ص) : « مَنْ دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ومَن أغلق بابه فهو آمِن ، ومن دخل المسجدَ فهو آمِن » .

فقامت هندُ بنتُ عُتْبةَ اليه ، وقالت له بعد ان اخذت بشاربه : اقتلوه قُبِّح من طليعة قوم !!

قال ابو سفيان : وَيْلَكم ، لا تغرَّنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قِبَلَ لكم به . عندئذٍ ، تفرّق الناس الى دورهم ، وإلى المسجد . وهكذا ، دخل رسول الله (ص) مع جيش المسلمين مكة فاتحاً ، ولم تُهْرَق يومئذٍ مُحْجَمَةُ دم .

وكان ذلك اليوم ، يوم الفتح الأكبر ، حيث عاد الحق الى نصابه ، وعادت الى بيت الله الحرام ، محوريتُه لقلوب المؤمنين ، ومشاعِرهم ، وأحاسِيسهم .

على خُطى إبراهيم

وبعد أنْ أمِنَ الناس ، واطمأنوا ، خرج رسول الله (ص) ، حتى جاء البيت ، فطافَ به سبعاً على راحلته ، يستلم الركن كل شوط منها بعُودٍ معوج بيده .

وكان حول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل (ص) يشير بالقضيب الذي كان في يده الى تلك الأصنام ويقول : ﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾[1]

فما أشار الى صنم منها في وجهه ، إلا وقع لقفاه ، ولا أشار الى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى اتى عليها كلها . !!

---

(١) الإسراء / ٨١ .

بعـد ذلـك ، طلب النبي (ص) مفتـاحَ الكعبـة ، فَفُتِحَتْ لـه ، فدخلها ، فوجد فيها أصناماً من جملتها حمـامة من عيـدان ، فكسرهـا بيده ، ورأى فيهـا صوراً للمـلائكة وغيـرهم ، من بينها صـورة ابراهيم (ع) . وفي يده الأزلام يستقسِمُ بها ، فقال النبي (ص) :

« قـاتلهم الله ، جعلوا شيخَنـا يَسْتَقْسِمُ بـالأزلام ، مـا شـأن ابـراهيم والأزلام ؟ مـا كان ابـراهيم يهوديـاً ولا نصرانيـاً ولكن كان حنيفـاً مسلماً ومـا كان من المشركين »

ثم امر بتلك الصور كلها فطُمِسَتْ . بعدها ، صـلَّى النبي لربِّـه داخل الكعبـة المشرَّفـة . ثم خرج ، فـوقف على بـاب البيت العتيق ، وقد اجتمـع الناس في المسجد فقال :

« لا إلّـه إلا الله وحده لا شـريك لـه ، صدق وَعْـدَه ، ونَصَرَ عبـده ، وهـزمَ الأحزاب وحـده ، يا معشـر قـريش ، إن الله قـد أذهب عنكم نخـوة الجـاهلية ، وتعـظمها بـالآبـاء ، النـاس من آدم ، وآدم من تـراب . ثـم تـلا هذه الآية : **﴿ يا أيها النـاس إنا خلقنـاكم من ذكرٍ وأنثى وجعلنـاكم شعوبـاً وقبائل لتعارَفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم ﴾**[1] .

ثم قـال : « يـا معشـر قـريش ، مـا تَـرَوْنَ أني فـاعـل بكم . . . ؟ » قالوا : « خـيراً ، اخ كـريم ، وابن اخ كريم . . . » قـال (ص) : « اذهبوا فـأنتم الطلقـاء . . . » وفي اليوم التـالي ، وقف رسـول الله (ص) ، مـوقفـاً آخر فقال :

« يا أيها النـاس ، إن الله حرَّم مكـة ، يوم خلق السمـوات والأرض ، فهي حـرام مِن حرام الى يـوم القيامـة ، فلا يحـل لامرىءٍ يؤمن بـالله واليوم الأخـر ان يسفك فيهـا دمـاً ، ولا يعضِـدَ فيهـا شجـراً . لم تحلل لأحـدٍ كـان

---

(١) الحجرات / ١٣ .

قبلي ، ولا تحلّ لأحدٍ يكون بعدي ، ولم تحلُل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ، ثم رجَعَتْ كحرمتها بالأمس ، فليبلِّغ الشاهد منكم الغائب . . . »

ومن مكة ، اخذ الرسول (ص) ، يُرسل البعوث الى ما حولها من أرض الحجاز ونجد ، يَدْعونَ الناس الى الدخول في الاسلام ، ولقد رأى النبي (ص) في منامه رؤ يا ، قال (ص) :[1]

« رأيت كأني لَقِمْتُ لقْمَةً من حَيْس[2] فالتذذتُ طعمها ، فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعتُها ، فأدخلَ عليٌ يده فنزعها . . . » فقال له احد اصحابه :

« يا رسول الله ، هذه سريةٌ من سراياك تبعثها ، فيكون في بعضها اعتراض فتبعث علياً فَيُسَهِّله . . . »

وهكذا كان ، حيث ارسل (ص)[3] خالد بنَ الوليد ، فيمن أرسل ، الى بني جُذَيمة داعياً الى الله ، ولم يرسله مقاتلاً ، فما كان من خالد ، إلا ان أعْمَلَ فيهم السيف ، وقتل منهم جماعة ، وعندما علم رسول الله (ص) بالأمر قام فاستقبل القبلة شاهراً يديه ، حتى انه ليُرى ما تحت منكبيه ثم قال : اللهم إني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثلاث مرات .

ثم دعا (ص) علياً (ع) فقال : يا علي ، اخرج الى هؤلاء القوم ، فانظر في امرهم ، واجعل امر الجاهلية تحت قدميك .

فخرج علي حتى جاءهم ، ومعه مال قد بعث به رسول الله (ص) ، فَوَدَى لهم الدماء ، وما أُصيبَ لهم من الأموال . وأصلح

---

(١) راجع ذلك في السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ٧٢ .
(٢) الحَيْس : خليط من سمن وتمر وأقط ، والأقط شيء يعقد من اللبن ويجفف .
(٣) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣ / ١٢٤ ـ ١٢٥ .

امـورهـم ، ثم رجـع الى رسـول الله (ص) فـأخبـره الخبـر ، فقـال (ص) له : « أصبتَ وأحسنتَ . . . »

وقـد كان مجمـوع ما أقـام رسـول الله (ص) بمكـة بعـد الفتـح خمس عشرة ليلة .

وهكـذا ، مشى رسـول الله (ص) نفس الخـطى التي مشـاهـا شيـخ المـرسلين ابـراهيم من قَبْلِه ، حيث حـطّم الأصنـام والأنصـاب والأزلام ، وطهّـر بيت الله العتيق ، من رِجْس الشـرْك ، ونجس الـوثنيـة ، وقـذارة الجاهلية ، فعادت الكعبة المشرّفة كما أرادها ربّهـا ، نقيةً مـطهّرة للطائفـين ، والعاكفين ، والرُّكع السجود لربِّ الأرض والسماء .

وهكـذا ، تهـاوت الآلهـة التي نَسَجَتْها أوهـام النـاس ، التي حـاك خيـوطها تجـار الرسـالات ومحرِّفـو الأديان والكتب السمـاوية ، مهشّمـةً على قَـدَمَي رسول الله (ص) بـالحق ، وخاتم النبيـينّ ، وعاد النـاس الى فِطَرِهم السليمة ، ليعبدوا الله وحده لا شريك له . . .

* * *

حجّةُ الوداع

وفي شهر ذي القعدة ، من سنة عشر للهجرة ، تجهَّزَ رسول الله (ص) للحج ، وأمر الناس بالجهاز له . وأصبح سكان المدينة ولا حديث لهم إلا ذلك . وخرج (ص) متوجهاً الى مكة ، لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة ، وقد ساق معه الهَدْي . وكانت هذه ، آخر حجة له (ص) ، ولذلك سُمِّيَت بحجة الوداع .

ولقد كان رسول الله (ص) . يدرك بأنها آخر عهده ببيت الله الحرام ، ولذا راح يعلم الناس سَنَنَ حجهم . ويُريهم مناسكَهم كما علّمهُ الله ، وذلك بشكل عملي تطبيقي . فحين وقف بِعَرَفة قال : « هذا الموقف للجبل الذي هو عَرَفة . ثم لما نَحَرَ بمنى قال « هذا المنحَر . . » وكذلك في مَزْدَلِفة ، وباقي مناسك الحج ، مما فرض الله سبحانه على الناس في حجهم ، مِن رَمي الجمار ، والطواف بالبيت ، وما أُحِلَّ لهم ، وما حُرِّم عليهم .

وخطَبَ النبي (ص) في الناس وهو بعَرَفة خطبته الأخيرة ، قبل ان قَفَلَ راجعاً الى يثرب ، ولقد كانت تلك الخطبة ، شاملة لكل جوانب الإسلام ، في العقيدة ، والسلوك ، والتشريع ، فسُمِّيَت تلك الحجّةُ بحجة البلاغ .

وكان مما جاء في خطبته تلك ، بعد ان حَمِد الله وَأَثْنى عليه :

« أيها الناس ، إسمعوا قولي ، فإني لا أدري لَعَلي لا القاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى ان تلقَوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقَوْنَ ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلَّغتُ ، فمن كان عنده امانة ، فليؤدِّها الى من ائتمنه عليها .

وإن كل ربا موضوع . ولكن لكم رؤوس اموالكم لا تَظْلِمونَ ولا تُظْلَمونَ . وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع .

أما بعد ، أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئِسَ من ان يُعْبَدَ بأرضكم هذه أبداً ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ، إن النسيء زيادة في الكفر ، يُضَلُّ به الذين كفروا ، يحلّونه عاماً ويحرِّمونه عاماً ليواطِئوا عدَّة ما حرّم الله ، فيُحلّوا ما حرّم الله ، ويُحرِّموا ما أحلَّ الله .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض .

وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متوالية ، ورجَب الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، واستوصوا بالنساء خيراً . . . فاعقلوا ايها الناس قولي ، فإني قد بلَّغت . إني قد تركت فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضِلُّوا بعدي ، الثَّقْلين ، واحدهما اكبر من الآخر ، كتاب الله ، حبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عَلَيَّ الحوض .

أيها الناس ، تعلَمُنَّ ان كل مسلم اخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىءٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه ، فلا

تظلِمُنَّ انفسكم » .

اللهم هل بلَّغت ؟

قـال الناس : نعم .

قال (ص) : اللهم اشهد »

وهكذا ، لم يرجع رسول الله (ص) ، من حجه هذا ، الا بعد ان بيَّنَ ، وعلَّمَ ، وبلَّغ ، ورسم حدود الحج كعبادة ، وأوضح معالمه ، ومناسكه ، وشعائره .

فما هي بالتفصيل ، هذه المناسك ، وما هي إيماءاتها وإيحاءاتها ، واهدافها التربوية ، وفلسفتها بشكل عام . . . ؟

مع فلسفة احكام الحج

عبادة الحج ، كغيرها من العبادات الاسلامية ، إنما شَرَعها الله سبحانه وتعالى ، لتؤدي للإنسان العابد ، منافعَ مادية ومعنوية ، تفيض بالخيرات والبركات ، في دنياه ، وأخراه . . .

فليست العبادة في الإسلام ، مجرد ربط للعبد بربه ، وانما تتوخى من خلال هذا الربط ، ان تضعه على الطريق ، الذي يكفل لسالكه السعادة والاستقرار ، ويمنحه الشخصية المتوازنة الفذّة ، التي يستطيع من خلالها تحقيق ذاته ، وتجسيد معنى خلافته لِلّه على الأرض . هذا المعنى ، الذي يَتَمحْوَر في فهمنا ، حول فكرة إيجاد المجتمع العابد في الأرض .

ومنافع الحج كعبادة ، متنوعة وكثيرة ، وهي ، على تنوّعها وكثرتها ، تصبُّ كلها في المجرى الذي ذكرناه : المجتمع العابد في الأرض ، بكل مقوّماته الروحية ، والأخلاقية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

وإن كانت عبادة الحج ، في عصرنا الحاضر ـ مع الأسف الشديد ـ قد أُفرِغَتْ من مضامينها ومحتوياتها ، نتيجة إدراك أعداء الإسلام لخطورتها ، بلحاظ ما يمكن ان تؤديه للأمة الإسلامية من طاقات ، وتوفّره لها من إمكانات ضخمة ، كفيلة بأن تدفع بها الى مركزها المفترض ان تكون فيه ، مركزاً لقيادة البشرية كلها في هذا العصر ، فعملوا على

تحجيمها ، وتحويلها الى مجرد طقوس خاوية خالية من أي معنى ذي قيمة واقعية .

بحيث أصبح الحج ، بالكيفية التي يُمارَس بها اليوم من قِبَل المسلمين ، متناقضاً مع ما شُرِّعَ من اجل تحقيقه من منافع .

هذه الأهداف الكبرى للحج ، والتي تَتَمحْوَرُ حول الهدف السَّوْقي الكبير ، وهو خلْقُ امةٍ وتكتيلُها ضمن المجتمع الإلّهي العابد ، هو الذي تشير اليه الآية الكريمة في كتاب الله : ﴿ **جَعَلَ اللّهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناس** ﴾[1] وماذا يكون ؟ بل كيف يكون قيام الناس إن لم يكن ما ذكرتُ ، وبالشكل الذي عَرَضتُ . . . ؟

وبعد . . .

فالحج ، عبارة عن ، إحرام ، وطواف بالبيت ، وصلاة ، وسعيٍ بين الصفا والمَرْوَة ، وتَقْصيرٍ ، ووقوف بِعَرَفة ، ومبيت بالمشعر الحرام ، ورميٍ ، وذبحٍ ، وحَلْقٍ ، . . . هذه باختصار ، هي اعمال الحج .

فلنحاول ان نَتلَمَّسَ الدروس ، والعظاتِ ، والعِبَر ، التي توحي الينا بها هذه الأعمال .

---

(١) المائدة / ٩٧ .

١ ـ الإحرام

وبالإحرام ، تُفْتَتَحُ أعمال الحج .

وهو عبارة عن لبس ثوبيْن ، يُشترط فيهما ألاّ يكونا مخيطين ، ولا من الحرير ، ولا مِن أجزاء حيوان غيرِ مأكول اللحم ، ولا من الذهب ، ولا المذهَّب ، وأن يكونا طاهرين .

ولا إشكال ، في ان لهذا الفعل الأول من افعال الحج ، حكمةً بالغةً . ومدلولاتٍ عميقة .

فبالإضافة الى ما يحقِّقُه هذا العملِ على صعيد الواقع ـ وإن المحدود في الزمان والمكان ـ من مساواة مطلقة ، تُلغىٰ معها كل الفوارق الطبقية ، التي تعبّر عن نفسها عادة بالمظهر الخارجي ، من الزينة والمَلْبَس ، بحيث يصبح الغني والفقير ، والشريف والوضيع ، والسيد والعبد ، في هذين الثوبين سواء .

مع ما يَستَتْبِعُ ذلك ، من اضمحلال ، او ضمور الشعور بالاستِعلاء ، او الشعور بالاتضاع .

أضف الى هذا ، فإن التَّلبُّسَ بهذين الثوبين المتواضعين ، من قِبَلِ كل حاج توجه لأداء الفريضة ، معناه الرجوع الى الذات ، واكتشاف او

استكشاف الإنسان ـ بعد ما تجرّد عن كل قِيَمَ الأرض ، ومواضعات أهلها ، مما يَرَوْنه اسساً للتقييم وميزاناً للمفاضلة ـ لقيمة نفسه الحقيقية ، والجوهرية ، بعيداً عن المظاهر الزائفة ، والمحسِّنات العَرَضية والسَّطحية .

إنه ، سوف يدرك حينئذٍ ، كم يساوي في عالم القِيَمِ الانسانية الحقَّة ، بعد ان نزع عنه ـ بالإحرام ـ جاهه ، ومالَه ، وسلطانَه ، وجرّد نفسه من الأولاد ، والعشيرة ، والأرصدة ، في البنوك وبيوت المال .

نعم ، إنه حينئذٍ ، سوف يكتشف أرصدته المعنوية ، من الصفات الإنسانية ، او الغرائز الحيوانية . من السّموّ في التطلعات نحو عالم المُثُلِ الكبرى ، او الارتكاس في حمأةِ الطين والتراب ، والتمرّغ كالحَيوان في عالم الضرورات ، بعيداً عن الله ، والسماء ، والرسالات .

وعندما يتأمل في ذلك كله ، فإنه من خلال تأملاته ، سوف يلتفت الى ان ثوبيه المتواضعين ، اللذين يلبسهما في لحظة انطلاقه نحو الله ، هما ـ تقريباً ـ في هذه الرحلة ، شبيهان الى حد بعيد ، بالكفن الذي سوف يُستر به جسده ، بعد ان يجرَّدَ من كل شيء في طريقه الى القبر ، بداية رحلته نحو الله أيضاً ، ليقف بين يديه ، ليجزيه على ما عمل في هذه الدنيا ، إن خيراً فخيراً ، وإن شراً فَشَرّاً . . . !

وكل هذه الأحاسيس التي تنتاب الحاج ، تجعل لديه أرضيةً خصبةً للشعور بالفقر والحاجة ، وتدفعه الى التوجه بكلّه الى الله سبحانه ، ليطلب عونه ، ومغفرته ، ورضوانه .

التَّلْبِيَة

والإحرام ، لا ينعقد ، ولا يتم ، إلا بترديد التلبية ، وصيغتها :

« لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيكَ ، لَبَّيْكَ لا شريكَ لك لبَّيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك لبَّيك . . . »

فهـذه التلبيـة ، هي تعبـير الإنسـان الحـاجّ في تلك اللحـظات ، عن هـروبـه الى ربـه ، ولجـوئـه اليـه ، وانقـطاعـه عمَّن سـواه ، من أشيـاء او أشخاص ، في هذا الكون ، مُقِرّاً بـأنه المستَحقُّ وَحْـدَه للعبادة والخضـوع ، والحمد ، بلا شـريك لـه في ذلك كله ، لأنـه سبحانـه وحده صـاحب النِعم التي لا تُحصى ، والأيادي الكريمة التي لا تُعَدّ . . .

وبهذه التلبية التي يردّدها الحاجّ عند إحـرامه ، يجـدّد عهد أبيـه إبراهيم (ع) مع الله ، الذي عاهده به : **﴿ إذ قال لـه ربُه أسلِم قـال أسلمتُ لربِّ العـالمين ﴾**[1] . **﴿ إني وجّهتُ وجهيَ للذي فـطر السماوات والأرض حنيفـاً وما أنا من المشركين ﴾**[2]

(١) البقرة / ١٣١ .

(٢) الأنعام / ٧٩ .

٢ ـ الطَّوافُ وَصلاتُه

وعندما يصل الحاجّ بعد إحرامه وتلبيته ، الى بيت الله العتيق ، عليه ان يطوف به سبعة أشواط ، تبتدىء ـ بعد النية ـ بالركن الذي فيه الحجر الأسود ، مروراً بحجْرِ إسماعيل ، وتنتهي بنفس الركن الذي ابتدأ به .

والطواف ، كنُسُكٍ من مناسك الحج ، له أيضا حكمته وأهدافه . إذ ليس في تشريعات الإسلام ـ مهما صغُرت ـ عَبثِية او لهو .

ولعل في طليعة هذه الأهداف ، هو ما توحي به هذه الحركة الدائرية حول الكعبة المشرّفة ، من قِبَلِ الحجيج .

هذا السيل المتدفّق ، من نقطة واحدة في الابتداء ، وإلى نقطة واحدة في الانتهاء !؟ وفي ذلك ما فيه :

أولاً : من وحدة المسلمين في انطلاقهم ووصولهم ، وما بين المنطلق والمَوْصِل ، مع وحدةِ نِيَّتهم ومقصدهم ، وهو الله تعالى .

وثانياً : هذه المحورية الواحدة ، حول بيت يَنْتَسِبُ الى الله ، بكل ما يرمز اليه سبحانه ، من رحمة ولطف ، وقوة وقدرة وجبروت ، وعلمٍ وإرادة ، وخير وجمال .

ولا ريب في ان محورية هـذه المعاني الجليلة كلهـا لحركـة المسلم تلك ، في طوافه حول البيت الحرام ، لها مردودها الإيماني والإيجـابي ، على شخصيـة ذلـك الإنسـان ، وسلوكـه ، وروحيتـه ، ممـا ينعكس خيـراً عـلى الإنسـانيـة جمعــاء ، ويجعــل من المجتمــع العــابــد في الأرض ، المنسجم في افكــاره ومسلكيــة أفـراده ، واقعـاً ممكن التحقيق ، راســخَ القــواعــد ، واضـــح الأهداف . . .

تساؤل وتوضيح

وقد يثور في ذهن المتأمل هنا سؤال :

لقـد حطّم الاسـلام الشرك ، وهشّم الأصنـام ، ورفع لـواء التـوحيـد خفّاقاً ، ورفرفت راية لا إلّه إلا الله ، وكانت التلبيـة إشعاراً بـالتسليم المطلق لِلّه ، وإفراداً له بالربوبية ، والوحدانية ، والواحدية .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما معنى ان يطوف الحـاج ، بأحجـار صمّاءَ لا تسمـع ، عميـاءَ لا تبصـر ، بكـماءَ لا تنـطق ، وهي بـالتـالي ، لا تضـر ولا تنفع ، . . .

فـما هو سِرّ هذا التشـريع ، الـطواف وجعله بهذه الأهميـة ، بحيث لو تركه الحاجّ عامداً فسُدَ حجه . . . ؟

ويبدو لي ، في مقام الجواب على هـذا السؤال ، هو ان الله سبحـانه ، أراد تـوحيد البشـرية قلباً وقالباً . وإنما تتـوحّد البشـريـة قلبـاً ، من خـلال تشريعات الله . هذه التشريعـات هي التي ترسم الـطريق ، لا لتزكيـة الروح فقط ، وتـطهير القلب ، ونـظافة التصـورات ، والأفكار ، وإنمـا لتجعـل من حركة الإنسـان وسلوكه ، صـورة محسوسـة عن كل عـالم القيم العليا هـذا ، تتم من خـلال ذلك ، المـطابقة الكـاملة بـين عـالم الأفكـار ، وعـالم السلوك التحرك ، فيحصل الانسجـام التام والثـابت ، في المسيرة الإنسـانية في هـذه

الحياة ، من دون ادنى ارتباك أو ازدواجية .

ولكن توحيد البشرية قلباً ، قد لا يكفي ليؤتيَ التشريع ثمارة المرجوّة ، ولذا كان للقالب أيضاً حظ من الإهتمام والإلتفات ، خاصة وان المعرفة الإنسانية ، في بدايات تكوّنها ، إنما تتم عن طريق الحسّ ، ولذا صُبَّت التشريعات في كثير من جوانبها ، في قوالب حسيَّة ، حتى يكون ثباتها في قلب المؤمن وعقله ، آكدَ وأعمقَ . ويكون مردودها على البشرية جمعاء ، مردوداً توحيدياً ، يصب في الرافد الأكبر للإسلام ، وهو مفهوم المجتمع البشري الواحد ، العابد لله الواحد المعبود .

ومن هنا ، نجد ان الصلاة عبارة عن حركات موحَّدةً بين كل العابدين لله الحق في الأرض ، مع اشتراط ان يكون المُتَّجَهُ للإنسان المصلي في حركاته تلك ، واحداً ، وهو الكعبة بيت الله .

وهنا تتجلّى وحدة الحركة للبشرية في توجّهها ، بحيث تجدها على اختلاف اقطارها ، متواجهةً متقابلة ، في حركات متناغمة منسجمة ، تحكمها افكار متناغمة ، ومشاعر متناغية ، تتقاطع كلها عند نقطة معنوية واحدة ، هي العبودية لِلّه الواحد ، وعند نقطةٍ حسّيةٍ واحدة ، هي الكعبة ، البيت الحرام .

وحيث إن النصوص دلَّت ، على ان الطواف بالبيت صلاة ، فإننا ندرك السرَّ الكبير في هذا التشريع ، والحكمة البالغة الباعثة عليه .

كما اننا ندرك أيضاً ، كيف جُعِل هذا البيت في مكة هدىً للعالمين ، اي هداية لهم الى ما فيه عزّهم وقوتهم ، وسؤددهم وسعادتهم .

ومن لفظ « العالمين » ندرك ان الهدف التوحيدي الكبير ، المتوخّى من خلال تشريع الطواف حول هذا البيت بالذات ، لا يقتصر على الإنس فقط ، وإنما يتوسّع ، ليشمل الى الإنس ، الجنَّ أيضاً ، بل الملائكة ، لأنه ورد بلفظ الجمع ، والجن والملائكة ، عالمان قائمان بذاتهما في هذا الكون

الواسع ، الى جنب عالم الإنس .

فالعملية ، تستبطن في حد ذاتها ، توحيداً للكون بكل عوالمه العاقلة ، الواعية لتحركاتها ، وأنماط سلوكها .

ثم تأتي بعد الانتهاء من الطواف ، صلاة الطواف .

وقد حُدِّد مكان خاص لتأديتها ، وهو مقام إبراهيم . قال تعالى : ﴿ **واتخِذوا من مقام إبراهيم مُصَلّى** ﴾[1]

وليس الملفتُ هنا للنظر ، هو تشريع صلاة الطواف ، فالصلاة ، كما ورد عن رسول الله (ص) خير موضوع ، وهي معراج المؤمن ، وقربان كل تقي .

ولكن المُلفِتَ للنظر ، هو هذا التحديد المكاني ، لتأدية مثل هذه الصلاة .

فلا يصحّ الإتيان بها ـ مع الإمكان ـ الا في مقام ابراهيم (ع) . فما هو الإيماء الذي يشي به مثل هذا التحديد ؟

عودة الى ابراهيم

انه بحسب الظاهر ، عملية ربط بإبراهيم ، وخط ابراهيم من جديد .

لقد أراد الله سبحانه ، من اشتراط هذه الصلاة ، بكونها في مقام ابراهيم ، حيث كان يقف ليرفعَ القواعد من البيت ، عندما امره ربّه بذلك ، أن يستذكر الحاج بوقوفه في نفس الموضع ، إصرارَ إبراهيم على

---

(١) البقرة / ١٢٥ .

تنفيذ امر الله ، لا كيفما اتفق ، وإنما على الوجه الذي يكون غاية في التمام والكمال ، وآيةً في الإبداع والاتقان . ولو استدعى ذلك بذل جهد ومشقة بلغت اقصى طاقته ، بقصد إحراز مزيد من رضوان الله .

وبهذا ، استحق ابراهيم ان يكون للناس إماماً ، وبالتالي ، استحق ان يكون موطىءُ قدميه المباركتين ، الثابتتين على طاعة ربه ، مسجداً يعرج العبد من خلال سجوده لِلّه عليه ، الى مرتبة العبودية الحقة ، والإخلاص والخضوع ، والتسليم له ، كما كان حال أبيه إبراهيم (ع) . . .

كما يستذكر الإنسان وهو في موقفه ذاك ، عهدَ الله الى ابراهيم وإسماعيل بتطهير البيت العتيق ، وأنه إنما كان لكل عابد لِلّه في الأرض ، وبذلك يلتفت العبد الواقف في مقام إبراهيم ، الى شمول رحمة الله له ، وذلك بتوفيقه للوصول الى هذه الأماكن المطهَّرة ، وهو بهذا ، ليس طارئاً على المكان ، وإنما له فيه نصيب ، وهو بَعْدُ ، في عالم الذرّ بمنظور الزمان أيضاً . . .

ولعل في تتمة الآية الكريمة : ﴿ واتخِذوا من مَقام ابراهيم مصلًّى ﴾ إشعار بذلك الارتباط ، حيث يقول سبحانه : ﴿ وعَهِدنا الى إبراهيم واسماعيل ان طهِّرا بيتي للطّائفين والعاكفين والرُّكع السجود ﴾[1]

---

(١) البقرة : ١٢٥ .

٣ ـ السَّعْي

والسَّعْيُ ، عبارة عن سبعة أشواط أيضاً ، يقطعها الإنسان الحاج مبتدئاً بها من الصفا ، وهي عبارة عن جبل صغير من صخر صَلْدٍ ، ومنهياً لها بالمَرْوَة ، وهي كالصفا وفي مقابلها ، بحيث يكون السَّير من الصفا الى المروة شوطاً ، والرجوع من المروة الى الصفا شوطاً آخر ، وهكذا دواليك ، حتى تتم الأشواط السبعة بالوصول الى المَرْوَةِ ، نهايةِ السَّعي . . .

وقد ذكر الله سبحانه الصفا والمروة فقال : **﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فَمَنْ حَجّ البيت او اعتمر فلا جُناحَ عليه ان يطَّوَّف بهما ﴾**(١)

« وشعائر الله ، هي ما تعبَّد الله به عباده ، وطلب منهم الإتيان به إعلاناً لخضوعهم له ، وامتثالِهم لأمرِه ، وعبوديتهم إيّاه . . . »

الأمومة الصالحة

والإيحاء الذي يُضفيه هذا العمل العبادي من أعمال الحج ، السَّعي ، هو ضرورة تذكّر المؤمن ، وهو يهرول بين هذين الجبلين ، امَّ

---

(١) البقرة / ١٥٨ .

اسماعيل ، هاجرَ عليها السلام ، عندما اشتد بها وبولدها العطش ، في ذلك الوادي القفر ، والأرضِ العطشى الى قطرة ماء .

فراحت تركض من هنا الى هناك ، وبالعكس ، تُفَتِّشُ ، علَّها تجد فيها وراء الوادي ـ إذا ما استطلعت واستشرفَتْ قِمَمَ الجبال المحيطة ، واحةً أو بئراً ، فلم تصطدم عيناها إلا بسراب .

وبعد ان اخذ منها الجهد كل مأخذ ، وفعلت ما ينبغي للإنسان ان يفعله في مثل هذه الحال ، ولم يَعُدْ عندها حَوْلٌ ولا طَوْل ، بعدما استفرغت وُسْعها في مَسْحِ الجهات الأربع من الوادي المبارك ، حَزْنِها وسَهْلِها ، فلم يبقَ لها إلا جهة العلو ، لترفع طرفَها إليها ، تتوسل برب إبراهيم ، المطَّلِع على حالها وحال ولدِها إسماعيل ، لِيَمُدَّ اليها وإليه يد رحمته ، مستذكرةً دعاء شيخ المرسلين له ، عندما همَّ بتركهما وحيدين في ذلك الوادي ، قافلاً الى مصر :

﴿ ربَّنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زَرعٍ عند بيتك المحرَّم ربَّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1]

وقد سمع الله استغاثتها ، واستجاب دعاء خليله إبراهيم .

ولذا ، عندما عادت لتتفقَّدَ وَلَدَها إسماعيل ، وجَدَت الماء وقد تفجَّر من تحت قدميه . فكانت زَمْزَم . !!

كل هذه الذكريات ، تثور في ذهن الإنسان المؤمن ، وتجول في خاطره ، وهو يسعى بين الصفا والمروَة . وهي ذكريات ، تربطه بالتاريخ الناصعِ العظيم ، الذي ينتمي اليه .

« ذكريات ، تربط قديمَ المؤمنينَ وجديدَهم » وهي « إعلان بأن دين

---

(1) إبراهيم / ٣٧ .

الله في الآخِرينَ ، هـو دينـه في الأوَّلـين ، يجـدِّد الـلاَّحِق من عبـاده ، سنَّـة السـابق منهم ، وإعـلان بـأن نعمـة الله عـلى الأولـين ، هي نعمـة الله عـلى الآخِرين ، يشكرها كما شكرها السابق . . . »

٤ ـ الوقوف بعَرفَة

وبعـد ذلـك ، يصعـد الحجيج الى جبـل الـرحمـة عَـرَفـات . وهم بصعودهم هذا ، يخلعون أنفسَهم « الى الطبيعة البريئة من صَنعةِ الإنسـانِ ، وزُخـرفِ الحياة » « الى الجبـال وأحجارِهـا ، والوديـان وسهـولهـا ، والـرمـال وحصبائِها » .

« الى السـماء وصفائهـا ، وهنـاك ، وفي عـرفـات ، تـرتفـع الحُجُب ، فيكمل الإشراف ، ويشتد الاتصال ، وتتوثق المعرفة » . .

« وهنـاك ، تقف الأشباح المتضـامنة بقلوب مملوءَةٍ بـالخشيـة ، ووجـوه شاخصةٍ بـالضراعـة ، وأيدٍ مـرفوعـة بالـرجاء ، وألسِنَـةٍ مشغولـةٍ بالـدعاء ، وآمالٍ صادقةٍ في أرحمِ الراحمين . . . »

« وهناك ، تشرق الذكرى عليهم بأنوارها الوهّاجة ، فيستمعـون بآذان القلوب الى صـوت محمـد رسـول الله (ص) ، يخـطب آبـاءَهم وهم في أصلابهم ، يجمِلُ لهم رسالتَهم ، ويحثّهم على صدق الإيمان ، وكمـال المعرفـة بحقـوق الله ، وحقوق العبـاد ، ثم يستشهدهم ، فيشهـدون أنّـه قـد بلّغ ، وأدّى ، ونصـح ، فيـرفـع إصبعـه الى السـماء ، ثم يشـير بهـا اليهم وهـو يقول : » « اللهم فاشهد . اللهم فاشهد . اللهم فاشهد . . . »

وهم ، في هذه الحالة الوجدانية الواعية ، ترتسم في عقولهم ، وأمام انظارهم ، صورة النشر والحشر ، والقيامة ، فتخشع قلوبهم ، وينطلقون في تضرّع ، وبكاء ، ودعاء .

الى ان تغرب شمس يوم التاسع من ذي الحجة .

٥ ـ المبيتُ بالمَشْعَرِ الحرام

وعنـد حلول اول آنات ليلة العيـد ، ليلة العاشـر من شهر ذي الحجـة الحرام ، ينطلق ذلك السيل الهـادر من ضيوف الـرحمن ، في وجهةٍ واحـدة ، وبدعاء واحد ، وبخطىً يبدو عليها ان اصحـابها قـد ازدادوا قوةً وإصـراراً ، عـلى متابعـة الطريق حتى النهـاية ، حيث ينتـظرهم رضـوان الله وغفـرانـه . ينـطلق ذلـك السيـل البشـري نحـو مـزدلفـة ، او المشعـر الحـرام . يقـول تعـالى : ﴿ **فـإذا أفضتم من عـرفـاتٍ فـاذكـروا الله عنـد المَشعَـرِ الحـرام ، واذكروه كما هداكم** ﴾ الآية[1] .

والمبيت في المشعـر الحرام ، عبـارة عن تواجـد الحـاجّ من منتصف ليلة اليـوم العـاشـر ، حتى شـروق الشمس يـوم العيـد ، يـوم العـاشـر من ذي الحجة .

ويجب على الحاج في هـذا الوقت ، ان يلتقط الحصى من أرض المشعـر الحرام .

ذلك الحصى ، الذي سـوف يرجم بـه ، فيما يُسمّى بشعيـرةِ الرمي في منى ، يوم العيد .

---

(١) البقرة / ١٩٨ .

ولعل مدلول هذا الحكم ، وهو وجوب جمع الحصى تلك الليلة ، ليستعملها في عمل مستقبلي ، يوحي ، بأن الله سبحانه ، أراد ان يُلفِتَ نظر المؤمن ، الى ضرورة الاستعداد المستمر ، لمصارعة الظلم ، والطغيان ، والانحراف . وأن يُعِدّ سلاحه دائماً ، ليكون جاهزاً أبداً ، للدخول في أية معركة محتملة بين الحق والباطل ، لئلاّ يفاجأ بها ، فيرتبك ، ويضعف ، وقد ينهزم .

٦ ـ أعمال منى

ومـع بـزوغ أول خيط من نـور شمس اليوم العـاشر ، يـوم عيد الأضحى ، يفيض الحجيج الى منى ، حيث « يتجلى إخلاص التوحيد ، وهي ميدان صراع قوى الحق والباطل ، والشرك والتوحيد ، والظلمات والنور » .

« فهذا إبراهيم ، يتلقى الأمر الإلهي بذبح ولده فينطلق » بولده دون تردد ، مع ان اسماعيل ، هو منْ رزقه الله إياه على كبره ، وبعد انتظار طويل ، وما ذلك ، إلا لينال رضوان الله ، وكفى به هدفاً سامياً .

وهنا « يلقي الشيطان بكل ثقله وبكل حيله ، ووساوسه ، ليمنع من حصول هذا العروج ، عروج قائد قافلة التوحيد ، وليُبْعِدَ رائد هذه المسيرة الإلهية عن ميدانه ، ويسلب محطم الأصنام ومطلق نداء (لا أحب الأفلين) من يد الأجيال الاتية ، والى الأبد ، ولا يدعه بالتالي ، يصل الى مقام الإمامة ، فيعود اسوة لكل العابدين للّه » .

« ويبقى الدَّور لإبراهيم ، ليتخذ قراره الأخير في هذا المنعطف التاريخي الهامّ ، ليخرج من اعظم امتحان على مدى القرون مرفوع الرأس . . »

« وقد جاء في الحديث ، ان الشيطان قد تجسّم ووقف في طريق

ابـراهيم يوسـوس له . إلا أن الشيـطان لا ييـأس ، فـما هي إلا خـطوات ، حتى يعترض طريقه مرةً اخرى ، ويجدد وساوسه » .

« فـما كان من ابـراهيم ، إلا ان كرّر رميـه بحصيـات سبـع اخـرى ، فطرده » .

« ويتكـرر المشهـد للمـرة الثـالثـة » حتى يئس إبليس ، الى ان وصلت المسيرة المباركة الى غايتها . واخذ إبراهيم برأس اسماعيل ، ووضـع السكين في عنقـه ، فحدثت المفـاجـأة : **﴿ فلمّا أسلما ، وتلّه للجبـين ونـاديناه أن يـا ابـراهيم قد صَدَّقتَ الرؤيا إنـا كذلـك نجزي المحسنـين إن هـذا لهـو البـلاء المبين وفديناه بذبحٍ عظيم . . ﴾**[1]

وهكـذا ، جعل الله سبحـانه ، من فـداء إبراهيم ، منسكـاً يجب عـلى كـل حـاج والى ان يشـاء الله ، ان يقـدِّمـه عـلى أديم نفس الأرض ، التي شهِـدَت يومـاً فصول هـذا الصراع بـين الحق والبـاطـل . بـين إبـراهيم نبي الله ، ورأس الغواية والشر، الشيطان .

وان يـرمي بنفس العدد من الحَصَيـات ، رمـزَ الشـر ، كـما فعـل أبـوه ابراهيم .

وبذلك ، يكون قد قارب نهاية مسيرته المباركة نحو الله .

ولم يبق امـامه في مشـواره الطويـل ذاك ، الا خـطوة واحـدة ، ليحـرِز بعدها ثمرة جهاده الشـاق في رحلته تلك ، رحلة الحـج ، رحلةِ الاستكشاف الظاهري والباطني .

وتلك الخـطوة البـاقيـة هي شعيـرة الحَلْق . وبعــدهـا ، يحـوز قصب السبق والانتصــار . السبق الى مغفـرة من ربّــه ورضــوان . والانتصــار في

(١) الصافات / ١٠٣ ـ ١٠٧ .

معركة الخير والشر الأزلية على هذه الأرض .

وكما ان المغفرة والرضوان من شؤون الله ومختصاته ، فكذلك النصر ، من صنع الله وإفاضاته .

ولعله ، من هذا المنطلق ، جعل سبحانه شعيرةَ الحَلْق آخر نُسُك الحج في منى .

إذ إن إزالة الحاج شعر رأسه بالحلق تقرُّباً الى الله ، إمارةٌ على طأطأته بعد تلك المسيرة المباركة في طاعة الله ، بأعلى عضو فيه أمام عظمته ، وعرفاناً بجزيل مِنَّته .

عيناً ، كما يضع ملك صَوْلجانَه عن رأسه على الأرض في لحظة انتصار ، ذلَّةً لِلّه ، وإيماناً منه ، بأنه هو المتفضِّل عليه بذلك النصر ، فلا يتوهمنَّ متوهم ، بأن النصر يصنعه إنسان بقُدُراته هو ، وبما أُوتي من علم عنده ، بل يتذكر باستمرار ، قول الحق سبحانه ﴿ **وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾[1]

نهاية المطاف

وأخيراً ، فإن الحج ، إضافة الى كونه عملية جرٍّ للماضي المجيد ، بكل ذكريات الرسالة السماوية الخالدة ، في مسيرتها المباركة ، من خلال مواقف الأنبياء والمرسلين .

إضافة الى كل ذلك ـ فهو مؤتمر إسلامي عظيم ، يجتمع فيه المسلمون بشكل طوعي ، يدفعهم النداء الإلهي نحو تأدية هذه العبادة : ﴿ **وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتينَ من**

---

(١) آل عمران / ١٢٦ .

كل فجٍّ عميق ﴾[1] .

وليحققوا من خلالها منافع جليلة ، كما أخبر سبحانه : ﴿ **ليشهدوا منافعَ لهم وليذكروا الله في أيام معدودات** ﴾ الآية[2]

وهذه المنافع ، منها السياسي ، كتدارس شؤونهم السياسية في بلدانهم ، وبخاصةٍ مشكلة الاستعمار ، وما يترتب عليه من تخلّف وانحطاط ، ووضع الوسائل لمحاربته بكل أشكاله وصُوَرِه القديمة والجديدة ، السافرة والمستترة .

ومنها الاجتماعي ، ومنها الاقتصادي ، ومنها التربوي . . . الخ .

إضافة ، الى دراسة امكانية تحقيق الوحدة الاسلامية ، بين أقطار المسلمين كافة .

ويمكن ان يكون اجتماع المسلمين في هذا المؤتمر الإلٓهي العام كل سنة ، اكبرَ شاهد على وجود إمكانية الوحدة هذه .

ذلك ان اختلاف اللغات والألوان ، والعروق والمراتب ، ليس له أدنى تأثير ، على انصهار هذه الشعوب في موسم الحج ، في بَوتقة واحدة ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى . . .

« فالحج ، إنما شُرِّع ، ليكون السبيل لجَمْعِ المتفرِّق ، ولمِّ المشتَّت ، وتقابل الآراء بالآراء ، ثم ليعود المجتمعون ، وقد حملوا مسؤلياتهم المشتركة . وأخذ كل منهم نصيبه منها ، يعمل مع أهله ومواطنيه على تحقيقها ، والقيام بواجبها ، في حفظ إنسانيتهم ، ورسم طرق سعادتهم .

(١) الحج / ٢٧ .
(٢) الحج / ٢٨ .

وليتكـوّن من جميعهم أمة واحـدة ، هي الأمة المثـاليـة الفـاضلة ، التي اعلى الله شأنها ، ورفع ذكرها . . .

﴿ كنتم خير امة أُخرجت للناس تأمرون بـالمعروف وتنهَـوْنَ عن المنكر وتؤمنون بالله . . . ﴾[1]

(١) آل عمران / ١١٠ .

الفهرست



المكتب : شارع سوريا ـ بناية درويش ـ الطابق الثالث
الادارة والمعرض ـ حارة حريك ـ المنشية ـ شارع دكاش ـ بناية ابو علي طعام
ص ـ ب ٨٦٠١ ـ ١١
تلفون ٨٣٦٦٩٦ ـ ٨٣٧٨٦٨
تلكس تعارف ٢٣٦٤٤ ـ LE

